

كامل كيراني

أشهر القصص

جلفر



الرحلة الثانية

في بلاد العمالقة

DUDARAB



دار المعارف

كامل كيداني

أشهر القصص

جَلِيقَرُ

الرحلة الثانية
في بلاد العماليق

الطبعة العاشرة



دار المغاري

في بلاد العراق

الفصل الأول

١ - دواعي السفر

لَمْ يَمُرَّ عَلَى عَوْدَتِي إِلَى وَطَنِي شَهْرَانِ حَتَّى ضَحَرْتُ نَحْيَاوِ الرَّاحَةِ ،
وَتَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى السَّهْرِ ، وَشَعَرْتُ بِشَوْقٍ شَدِيدٍ - لَا فِدْرَةَ لِي عَلَى دَفْعِهِ -
إِلَى الرَّحِيلِ ، وَرَغْبَةً حَارَّةً فِي السَّيَاحَةِ وَرُؤْيَا أَلْبَادِ الْغَرِيبَةِ . وَنَدَّ تَمَلُّكَ عَلَى
حُبِّ الْأَسْفَارِ كُلِّ نَفْسِي ؛ فَاعْتَزَمْتُ أَنْ أَطْلُقَ ، وَتَرَكْتُ لِرُؤُوسِي حَقْمَةً
جَنِيهِ ، وَاكْتَرَزْتُ لِكُنَاهَا مَنَزَلًا فِي « كَرْدِيف » . وَأَخَذْتُ مَا بَقِيَ مِنْ
نَرُوقِي ؛ فَضَرَبْتُ بِبَعْضِهِ مَضَاعِيقَ أَثَرٍ فِيهَا . لِأَتَمَّرَ مَالِي وَأَزِيدَ فِي نَرُوقِي .
وَكُلَّ عَمَلِي قَدْ تَرَكَ لِي - بَعْدَ وَفَائِهِ - أَرْمًا يُقَدَّرُ رُبَّمَا ثَلَاثِينَ جَنْبَهَا .
وَنَدَّ شَجْنِي ذَلِكَ كَلَامَهُ عَلَى السَّهْرِ ؛ ضِدَّ أَمْسَحَتْ لَا أَحْسَنِي - عَلَى أَسْرَقِي -
أَلَمْ الْهَافَّةِ وَمَضَانَةُ الْجُوعِ وَالْإِلْتِحَاءِ إِلَى التَّكْشِفِ وَالشُّوَالِ .

وكان ولدي يتعلمُ اللاتينيةَ في المدرسة ، وابنتي تخطِطُ الملابسُ وتُطَرِّزُها
تُسْتَفِيقُ على بِنْتَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ .



ولم أتردد في عزيمتي على السفر — بعد أن
اطمأنت نفسي على مستقبل أَسْرَتِي — فودَّعْتُ
زَوْجِي وولدي وابنتي . وقد بَكَوْا حين دَنَتْ
ساعةُ الفراقِ ؛ ولكنني تَحَمَّلْتُ ، واعتصمتُ
بالصَّبْرِ ، وصَبَّغْتُ — بشجاعةٍ — إلى السفينةِ
«أفاتور» ، وهي سفينةُ تجاريةٍ كبيرةٌ تستطيعُ
أن تحملَ ثَلَاثِينَ طَائِلًا ، وكان رُبَّانُهَا من «لِفَرْبول» ، وهي مُنْجِرَةٌ
إلى «سورات» .

٢ — هُبوبُ العاصفةِ

وكأَنَّمَا قَضَى اللهُ عَلَيَّ أَنْ تكونَ حياتي — في هذه الدنيا — حياةً مضطربةً ،
وَأَنْ أَقْفِي عُمْرِي دائِمَ الأسفارِ ؛ لَا يَمُرُّ لِي قَرَارٌ ، فاستبدلتُ بِحَيَاةِ الْخَفَنِيزِ
وَالدَّعَةِ حَيَاةَ الْفَقْرِ وَالِإِتْحَامِ .

وقد أَقْلَمْتُ السَّفِينَةَ في في اليومِ العشرين من يونيو عام ١٧٧٢ م . وكان
الهواءُ رُحَاءً وَالْجَوُّ صَافِيًا ، وما زالت السفينةُ سائرةً حتى وصلت إلى «رأسِ
الرجاء الصالح» ، حيث أَلْقَيْنَا مَرَايِنَا لِلتَّسَرُّعِ قَلِيلًا . وكان رُبَّانُنَا قد
أُصِيبَ بِالْعُمَى ؛ فلم نستطعُ أَنْ نَعَادَ ذَلِكَ الْمَكَانَ إِلَّا في آخر شهر مارس .
وَنَمَّةٌ أَقْلَمَتْ بنا السفينةُ . وما زالت تَمُخَّرُ بنا عُبَابَ الْبَحْرِ — وَالْجَوُّ صَافٍ
وَالرَّيْحُ مُتَدَلِّ . وَالْبَاحَةُ مَوْقِفُهُ سَيِّدَةٌ — حتى وصلنا إلى جزيرة «مدعشر»
حيث سِرْنَا إلى شمال هذه الْخَزِيرَةِ . وكانتِ الرِّيحُ تَمْتَلِكُ في هذه الجهاتِ
من أول ديسمبر إلى أول مايو . ولكنَّ هُبُوبَهَا — لِشِدَّةِهَا — بدأ يشتدُّ في
التاسع والعشرين من أبريل . وما زالت تَعُفُّ وَتَشُورُ عِشْرِينَ يَوْمًا تَبَاعًا ؛
فاندَقَعْنَا — في هذه الأثناء — إلى شرقي «جزائر الملوك» ، في الدرْجَةِ الثالثةِ
تقريبًا من شمال خطِ الاستواء ؛ ذلك ما قَدَّرَهُ الرُّبَّانُ . وَكُنَّا في
اليومِ الثاني من شهر مايو . وقد هدأتِ الرِّيحُ التَّائِمَةُ ، ولكنَّ الرُّبَّانَ قد
أُنْذِرْنَا بِاقْتِرَابِ عاصِفَةٍ أَقْدَرُ . وكان ذلك الرُّبَّانُ من أَوْسَعِ الْمَلَّاحِينَ خُبْرَةً
يَحْكُمُ الْجَوَّ وَتَحْلُلُ الْبَحْرَ ، وقد أَكْسَبَتْهُ التَّجَارَةُ وَالنَّحْسُ بِأَحْوَالِ هَذِهِ
الْحَارِ حَصَافَةً نَادِرَةً وَالْمَعْيَةَ لَا تَكَادُ تُحْطَى . وقد أَمَرْنَا بِأَنْ نَعِدَّ الْمُدَّةَ

لمكافحة العاصفة الهوجاء التي سببت علينا في القد .

٣ - في أرض الصافيّة

وفي اليوم السادس من يونيو عام ١٧٠٣ م ، كان أحد متلّاحينا مُعتليّنا ذُرْوَةَ السَّارِيَةِ ، فَلَاحَتْ لَهُ الْأَرْضُ مِنْ بَيْدٍ . وما أَخْبَرْنَا بِذلِكَ ، حتّى وَلَّيْنَا سَفِينَتَا شَطْرَهَا . ولَمَّا جَاءَ الْيَوْمَ السَّابِعَ عَشَرَ رَأَيْنَا الْبَابَةَ بِوُضُوحٍ ، ولم نَسْتَطِيعْ أَنْ نَتَرَفَّأَ أَبْنَ نَحْنُ ؟ وهل وصلنا إلى جزيرة كبيرة ، أم قَارَةٌ مجهولة ؟ فَاقْتَرَبْنَا مِنْهَا ، وَاقْتَبَيْنَا تَرَائِسَ السَّفِينَةِ ، وَأَرْسَلْنَا رُبَانَنَا اثْنَيْ عَشَرَ مُتَلَّاحًا فِي زَوَاقٍ صَغِيرٍ ، وَمَعَهُمْ أَسْلِحَتُهُمْ ؛ لِيَدْفِعُوا عَنْهُمْ إِذَا دَهَمَهُمْ خَطَرٌ ، وَقَدْ أَوْصَانَا الرُّبَانُ بِالْبَحْثِ عَنْ مَا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَأَعْطَانَا أَوَاقِيَّ لِيَمْلِكُوها مَاءً ، فَاسْتَأْذَنَتِ الرُّبَانُ مِنْ مُصَاحِبَتِهِمْ ، فَلَمْ يَرُدُّوا فِي الْأُذُنِ لِي . ولم نَهْطُ تِلْكَ الْأَرْضَ حتّى سِرْنَا بِاحْتِشَانٍ عَنْ نَهْرٍ أَوْ عَيْنٍ مَاءٍ ؛ فَلَمْ نَرَفْهَا أَمَّا وَاحِدًا يَدُلُّنا عَلَى أَنَّهَا مَأْهُولَةٌ بِالسَّكَّانِ . فَسَارَ رَجَالُنَا بِالْقَرَبِ مِنَ الشَّاطِئِ لِيَبْحَثُوا عَنْ الْمَاءِ ، وَسِرَّتْ أُنَا - لِسُوءِ حَظِّي - مُنْفَرِدًا . وَقَدْ دَفَعَنِي حُبُّ الْإِشْتِدَالِ إِلَى التَّوَعُّلِ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ نَحْوَ مِيلٍ ؛ فَوَجَدْتُهَا أَرْضًا صَخْرِيَّةً مُجْدِبَةً قَهْرًا . ثُمَّ أَدْرَكَنِي

وَقَدْ تَحَقَّقَ لَنَا صِدْقُ مَا قَالِ . وَهَمَّتْ عَلَيْنَا رِيحُ الْجَنُوبِ عَنِيَّةً عَاسِفَةً . وَكُنَّا عَلَى أَيْمٍ أَغْبَى ؛ فَطَوَيْنَا الشَّرَاعَ وَأَمْسَكْنَا بِالسَّارِيَةِ ، وَلَكِنْ الْعَاصِفَةُ - لِسُوءِ الْحَظِّ - كَانَتْ تَزْدَادُ شِدَّةً وَعُفْقًا . وَلَمْ نَجِدْ لَنَا مِنْ حِيلَةٍ نُنْقِصُ مِنْ أَضْرَارِهَا إِلَّا أَنْ نَبِيرَ حَيْثُ تَكُونُ الرِّيَّاحُ خَلْفَنَا ؛ فَانْتَرَتِ السَّفِينَةُ قَلِيلًا ، وَجِئْنَا الشَّرَاعَ الْكَبِيرَ بِحَيْثُ لَا يُعَارِضُ الْعَاصِفَةَ . وَلَكِنْ خَابَ حِسَابُنَا ، وَأَخْطَأَ ظَنُّنَا ؛ فَقَدْ عَفَّتِ الرِّيَّاحُ ، وَمَزَقَّتِ الشَّرَاعَ تَمَرِّقًا ، وَاسْطَلَخَتِ الْأَمْوَاجُ ، وَظَلَّتِ السَّفِينَةُ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ لَا يَفَرُّ لَهَا قَرَارٌ . ثُمَّ أَغْشَبَ الْعَاصِفَةُ رِيحٌ عَالِيَةٌ : فَدَفَعْنَا إِلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ لَا أَحْسَبُهَا قَبْلُ عَنْ خَمْسِمِائَةِ مِيلٍ نَحْوَ الشَّرْقِ ، فَأَسْبَحْنَا فِي مَكَانٍ مِنَ الْبَحْرِ مَجْهُولٍ لَا أَعْتَدُ أَنْ سَعْنَةً قَبْلُنَا قَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ ؛ وَمَا أَظُنُّ أَنَّ رُبَانَنَا - بِالْمَعَةِ - مَا بَلَقَتْ خَيْرُهُ بِالْبَحَارِ - يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرِفَ مَوْقِعَ هَذَا الْمَكَانِ الثَّانِي السَّحِينِ . وَلَمْ نَكُنْ نَشْكُو - حِينَئِذٍ - قِلَّةَ الزَّادِ ، وَلَمْ نُصَبِّ سَفِينَتَنَا بِمَدِّ كُلِّ هَذِهِ الْمَوَاصِفِ بِعَطْبٍ ، وَلَمْ يَمْرُسْ أَحَدٌ مِنْ رَجَالِنَا ، عَلَى مَا كَابَدُوهُ مِنَ الْعَنَاءِ وَالشَّدَقَةِ . وَلَمْ يَكُنْ يُعَوِّزُنَا حِينَئِذٍ إِلَّا الْحَصُولُ عَلَى الْمَاءِ الْعَذْبِ .

التعب والملل ؛ فرجعت مُبَاطِلًا في سُرَى من حيثُ أَتَيْتُ . وَبَيَّنَا أَنَا
مُقْتَرِبٌ مِنَ الشَّاطِئِ إِذْ رَأَيْتُ رِفَاقِي يَجِدُونُ سُرْعَةً شَدِيدَةً ، رَغْبَةً فِي
إِقَادِ حَيَاتِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ ، وَرَأَيْتُ عِمْلَاقًا هَائِلَ الْجِسْمِ يَتَقَبَّهُهُمْ بِسُرْعَةٍ
شَدِيدَةٍ . وَلَكِنْ رِفَاقِي كَانُوا عَلَى بُعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِنْ ذَلِكَ الْعِمْلَاقِ ؛ فَلَمْ
يَسْتَطِعِ الْآخِقَاءُ مَعَهُمْ .



وَمَا رَأَيْتُ ذَلِكَ حَتَّى
أَسْرَعْتُ بِالْفِرَارِ مُتَسَلِّقًا
قِمَّةَ جَبَلٍ وَغَرٍّ . ثُمَّ
نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ مَرْجَأًا ، وَقَدْ
تَمَلَّكَنِي التَّعَبُ مِنْ
ارْتِفَاعِ خَشَائِشِهِ إِلَى عِشْرِينَ
قَدَمًا . فَتَدَمَّتُ أَشَدَّ الدَّمْعِ
عَلَى مُجَازَفَتِي بِالْخُرُوجِ إِلَى

هَذِهِ الْحَزِيرَةِ ، وَالسَّيْرَ مَعَهَا بِدَا عَرِ رِفَاقِي ، وَعَلِمْتُ أَنَّ حُبَّ الْإِسْتِظْلَاجِ
قَدْ سَاقَنِي إِلَى الْحَنَفِ وَالْهَلَاكِ . وَلَكِنِّي رَأَيْتُ الدَّمَ لَا يُبْعَدُ . فَلَسْتُ

أُفْرَى إِلَى اللَّهِ ، وَمَتَّعْتُ فِي طَرِيقٍ كَثِيرَةٍ نَهْجِي بِحَقْلِ مَرْزُوعٍ شَعِيرًا ،
سَرْتُ قَلْبِي لَا دُونَ أَنْ نَقَعَ عَيْنِي عَلَى إِنْسَانٍ . وَكَانَ وَقْتُ الْحَفَاةِ قَدْ دَنَا
وَنَضَحْتُ سَائِلِ الْقَمَحِ ، وَوَصَلَ ارْتِفَاعُهَا إِلَى أَرْبَعِينَ قَدَمًا أَوْ أَكْثَرَ .

فَسَرْتُ سَاعَةً مِنَ الزَّمَنِ دُونَ أَنْ أُصِلَ إِلَى هَيَاةِ الْحَقْلِ . وَكَانَ يُحِيطُ بِهِ
سِيَاحٌ عَالٍ يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ قَدَمًا . وَقَدْ عَجِبْتُ
لِخِثَامَةِ الْأَشْجَارِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ ، وَطَوِيلِهَا الَّذِي لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُهُ عَقْلٌ ؛
حَتَّى لَمْ يَسْتَحِبُّ عَلَيَّ أَنْ أَقْدِرَ ارْتِفَاعَهَا ، وَبَحِثَ طَوِيلًا عَنْ نُفُورِهِ فِي ذَلِكَ
السَّيَاحِ لِأَتَقْدِرَ مِنْهَا إِلَى الْحَقْلِ . وَإِنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ وَقَعَ نَظْرِي عَلَى عِمْلَاقٍ
آخَرَ فِي الْخَيْلِ السَّجَاجِ ؛ فَرَأَيْتُهُ فِي مِثْلِ طُولِ الْعِمْلَاقِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ
يَتَقَبَّهُ رِفَاقِي الْهَارِثِينَ !

٤ مِنْ سَائِلِ الْقَمَحِ

وَهَذَا عَلِمْتُ أَنِّي فِي بِلَادِ الْعَالِقَةِ ؛ فَهَذَا كَانَ كُلُّ رَجُلٍ مَعَهُ فِي مِثْلِ
ارْتِفَاعِ الْبُشْدَنَةِ . وَكَانَتْ مَسَافَةُ خَطْوَتِهِ نَحْوَ سِتَّةِ أَمْتَارٍ . فَتَمَلَّكَنِي
الدُّعْرُ ، وَكَادَ يَنْخَلَعُ قَسِي مِنْ شِدَّةِ الْهَلَعِ ؛ فَاسْرَعْتُ أَحَاوِلَ الْإِخْتِفَاءَ بَيْنَ

سابل القمح ، وانسلت من ثُغْرَةٍ قريبة ، فلمحتُ الملاق من بعيد
وبعد قليل صاح بصوت كالرعد القاصف ، بكاد يُصمُّ الأذان : فحضرتُ إليه
سبعة رجال - في مثل طوله وضغاته - وفي يد كل واحد منهم منجلٌ
صغير في حجم ريت مناجيل كبيرة من مناجيلنا . وكان زيمهم بدلًا على
أهم خدام ذلك السيد ؛ قد جاءوا مُكئين نِزَاهَهُ ، وأفلوا يحصدون سابل
القمح بمناجيلهم - حيث كنت مُخْتَبِتًا - فجزيت منعًا عن كلامهم .

ولم يكن من اليسر عليّ أن أنطلق في عدوي :

قد كانت سابل القمح - لشدة قارُبها - تكاد
تلتصق ، وكان بعضها لا يبعد عن بعض إلا
بمقدار قدم واحدة .



على أنني بذلت جهدي حتى وصلت إلى آخر
مكان أستطيع الوصول إليه ، إذ اغترصتني
كومات من السابل المتشبكة . وقد حاولت أن أخترقها أو أجوس
خلالها ، فلم أجد إلى ذلك سبيلًا : قد خف كثير منها . وأصبح حركتها
شائكة مُدْبِئًا قويًا كطراف المدي : فخشيت أن يُفقد إلى جسي

فيها لگس . وسمعت أصوات الطاسدين على مسافة قريبة مني ، وكان الإغياة
قد بلغ مني كل ملع ؛ فعملتُ كمن الناس عدان خارت قواي ، فرقدتُ
بين أحدودين من الأحاديث التي شقها المخرات ؛ وقد تقيت من الحياة
وذكرت وطني الربر ، وصورتُ أرتملي وولدي الذين أوشكا أن
يتيتسا ، وندمتُ أشد الندم على جسوني الذي دفني إلى هذه الرحلة
المشومة ، مخالفًا نصيحة خلصائي وتشمع أهلي بي ألا أفارقهم ، وأبقتُ
أن آجرتي قد دنت . ثم ذكرت بلاد « ليليوت » التي فرزت منها ،
وكيف كنت فيها عيالًا هائلًا بين أقزام صغار ، وكيف استطعت أن
أستوي - بفردى - على أسطول إمبراطورية بأشريها ، وكيف قُنتُ
وخرى بأعمال حيلة باهرة سبقتُ حادثة على مرّ الدهور في تلك البلاد ،
وسبقيتها التاريخ فلا يصدّقها ذراعي الأقزام وحقدتهم - لئلا يشا وبُعدها
عن مألوهم - وإن أحسح أشلاقهم على أنهم رأوها رؤية العيان .

ورأيتُ الفرق شاسعين الحالين ، فاضت نفسي بالوعده والألم ، قد
انتقلت حالي من الصّد إلى الصّد ، وأصبحت في هذه البلاد - لقرط صاكتي -
ألوح لأهلها كما كان يلوح لي أقزام « ليليوت » . ولعل هذا هو أهون

ما ألقاه من الشقاء في هذه البلاد : فقد أَسْتَعْنَى التَّجَرُّبُ والمُلاحِظَةُ أن
المخلوقات الإنسانية تَكْثُرُ قُوَّتُهَا ویشدد طُغْيَانُهَا ، كلما قَوِيَ بَأْسُهَا
واشْدَدَتْ قُوَّتُهَا . وَثَمَّةُ أصبحتْ أَمْرَقُ الهلاك بين لحظة وأخرى ،
وَأَتَوَقَّعُ أَنْ يَمْرُقَني أَوَّلُ من يظفرُ بي من هؤلاء العماقة ، وأن يَرُدَّ رَدِّي
بِسُهولة .

٥ - في قَبْضَةِ عِملاق

لقد صدَّقَ الفلاسفة حين قالوا : إِنَّ السَّكَبَ والصَّغَرَ أَثْرَانِ نِسْبِيَانِ ؛
فليس في الدنيا صغيرٌ مُطلقٌ أو كبيرٌ مُطلقٌ ، ولكن الشيء إذا قِيسَ إلى
غيره ظهرَ كَبِيرُهُ وصَغَرُهُ بالمُقايَسة . وَمَنْ يَدْرِي ؟ قد يُصادِفُ أَقْزَامُ
« ليليوت » أَمَّا أُخْرَى غَايَةً في الضَّالَّة ، فيجدون أَنفُسَهُمْ يَنْتَهِمُ - كما
وَجَدْتُ نَفْسِي بِالنِّقَاسِ إِلَيْهِمْ - عِمَاقَةً بَيْنَ أَقْزَامِ !

ومن يدري ؟ فلفلُ عِمَاقَةٍ هَذِهِ البلادِ إذا وُزِنُوا بَنِيرِمْ مِنَ الْأَمَمِ
التَّجْهولة التي لم تُكشَفْ بعدُ ، أَصْبَحُوا - بالنِّقَاسِ إِلَيْهِمْ - أَقْزَامًا ضِئلاً
بين عِمَاقَةٍ كِبَارِ !

وَلَا عَرَفْتُ ذَلِكَ : فقد كُنْتُ عِمَلاقَ العِمَاقَةِ في بلادِ الْأَقْزَامِ ، ثم
أصبحتُ قَرْمَ الْأَقْزَامِ في بلادِ العِمَاقَةِ . وهكذا :
« يُنْتَصَرُّ الْعَبْدُ الْحَيْرُ ، وَتَحْتَهُ أُمَمٌ تَوْهَمُ أَنَّه جَبَّارُ » .

...



وَلَمَّا تَفَارِقْتُ في هذه الأفكارِ الصَّلَافِيَّةِ التي
مَلَأَتْ نَفْسِي في هذا الموقفِ المَرَّجِ الرَّاعِبِ ،
إِذْ رَأَيْتُ أَحَدَ العاصِدِينَ على مَسَافَةٍ ثَمَانِيَةِ أَمْتَارٍ
مِنِ الْأَخْدُودِ الَّذِي اخْتَبَأْتُ فِيهِ ؛ فامْتَلَأَتْ نَفْسِي
رُغْبًا ، وَخَشِيتُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَمَامِ خُطْوَةً
وَاحِدَةً ، فَيَسْحَقَنِي بِسَدِيدِ سَخْفًا ، أَوْ يُهَوِّيَ

بِمِجْلَالِهِ إِلَى سَابِلِ الْقَمَحِ ، فَيَقْطَعَ جَسْمِي مَتَمَا شِطْرَيْنِ . وَمَا رَأَيْتُهُ يَرْفَعُ
قَدَمَهُ لِيَخْطُوَ خُطْوَةً أُخْرَى حَتَّى صَرَخَتْ صَرَخَاتٍ مُؤَلِّمَةً قَوِيَةً ، وَقَدَمُ
الرُّغْبِ نَفْسِي . فَوَقَّعَ السِّمْلَاقُ فِجَاجَةً . وَأَخَذْتُ أَمْلُ فِيمَا حَوْلَهُ وَبُنْعَمُ
النَّظَرِ فِي الْأَرْضِ ، لِيرَى مَصْدَرَ هَذَا الصَّوْتِ الغَائِبِ الَّذِي طَنَّ فِي أَدْنِيهِ ،
حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَيْهِ ، فَنَظَرْتُ مُتَمَحِّبًا مَدْهُوشًا مِنْ صَاحِ كَلِمَةِ جَسْمِي ، وَدَمَا مِثِّي

— وقد اشتدَّ حَذَرُهُ — كما تَشَرَّبُ نَحْنُ من حَشَرَةٍ صَغِيرَةٍ خَطَرَةٍ
لا نَعْرِفُ كُنْهَهَا : وأمسكني من وَسْطِي — بِحَذَرٍ شَدِيدٍ — بِحَيْثُ يَأْمُرُ
كُلَّ خَطَرٍ، قَدْ أَكُنْ — فِي نَظَرِهِ — حَيَوَانًا سَامًّا . وَكَأَنَّمَا خَشِيَ أَنْ أَغْصَنُهُ
أَوْ أَخْذَشَهُ ؛ فَذَكَرَنِي ذَلِكَ بِمَا فَعَلْتُ مَعَ ابْنِ عَرِينٍ كُنْتُ قَدْ أَمْسَكْتُهُ مِنْ
وَسْطِهِ ، حَتَّى لَا يَغْشَى أَوْ يَخْدِشَنِي .

نَمْ تَشْجَعُ قَلِيلًا ، فَأَذْنَانِي حَتَّى أَصْبَحْتُ عَلَى مَسَافَةٍ مِثْرٍ وَنِصْفٍ مِثْرٍ
مِنْ عَيْنَيْهِ ؛ لِيُثَبِّتَ
مِنْ وَجْهِهِ بِدَقَّةٍ .
وَقَدْ أَدْرَكَتْ عَرَضُهُ
— لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ — فَلَمْ
أُبْدِ أَيْ مُقَاوِمَةً حَتَّى
لَا يُبْقِيَ الظَّنَّ بِي ،



فِيْلَيْفَتِي مِنْ يَدِهِ ، فَأَهْوَيْ مِنْ ارْتِفَاعِ سِتْرَيْنِ قَدَمًا أَوْ أَكْثَرَ . وَقَدْ شَعَرْتُ بِالْأَمِّ
شَدِيدٍ ، فَلَمْ أَطْلُقْ مَنَظَرُ أَصَابِهِ عَلَى جِسْمِي ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَفَّقَ فِي جُوهَدِهِ ،
وَحَرَّصَ عَلَى أَنْ يَضِلَّ عَلَى جِسْمِي ، حَتَّى لَا أَنْزِلَ لِي مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ الْكَبِيرَةِ .

وَلَمْ يَكُنْ فِي قَدْرِي أَنْ أَقَاوِمَ إِدَابَتَهُ ؛ فَارْتَبْتُ بِبَصَرِي إِلَى السَّمَاءِ ، وَصَمَمْتُ
يَدِي إِلَيْهِ — كَمَا يَفْعَلُ الْمُتَوَسِّلُ الضَّارِعُ — وَاسْتَنْطَفْتُهُ بِبَصِيعِ كَلِمَاتٍ تَطْلُقُ
بِهَا بِصَوْتِ الْغَزِيرِ الْمُتَهَدِّجِ . وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يُبْلِغَنِي بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى
إِلَى الْأَرْضِ ، وَيَسْحَقَنِي بِقَدَمِهِ — كَمَا تَسْحَقُ الْخَشَرَاتُ الْكَرِيمَةُ مُقَادِمًا
لِئْسَلِكُمَا — وَلَكِنْ أَسَارِيرُهُ قَدْ تَطَلَّعَتْ ، وَوَجْهُهُ قَدْ تَهَلَّلَ بِالْبَشِيرِ ،
حِينَ سَمِعَ صَوْتِي وَرَأَى حَرَكَاتِي ، وَأَطَالَ نَظَرَهُ فِيَّ ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ
مِنْ سَأَلَةِ حَسِيٍّ ، وَاشْتَدَّ عَجَبُهُ حِينَ سَمِعَنِي أَنْطِقُ بِالْقَاطِطِ — كَمَا يَنْطِقُ
الْأَدَمِيُّ — وَإِنْ لَمْ يَفْقَهُ لَهَا مَعْنَى . وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكْبُفَّ عَنِ التَّنَبُّهِ
وَالزَّفَرَاتِ ، وَهَمَلْتُ عَيْنَايَ بِالْأُدْمُوعِ ، فَضَلْتُ لَهُ ضَارِعًا بِأَكْبَا :

« شَدَّ مَا يُؤَلِّمُنِي لَنْسِ إِسْبَعَيْكَ ، يَا سَيِّدِي الْعَمَلَقُ ! »

وَكَأَنَّمَا قَطَنَ لِمَا شَعَرْتُ بِهِ مِنَ الْأَلَمِ — وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْ قَوْلِي — فَوْضَعْنِي
مُتَرَفِّقًا فِي جَنْبِهِ ، وَانْطَلَقَ يَمْدُدُو إِلَى سَيِّدِهِ الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي التَّحَلُّ مِنْ قَبْلُ ،
وَهُوَ زَارِعٌ غَنًى . وَمَا رَأَيْتُهُ حَتَّى دَهِشَ ، وَأَخَذَ عَوْدًا صَغِيرًا مِنَ الْأَرْضِ
— فِي حَقِيمِ الْمِصْبَا الَّتِي نَوَّكَأُ عَلَيْهَا فِي بِلَادِنَا — وَرَفَعَ بِهَا أَطْرَافَ ثَوْبِي وَهُوَ
يَحْضِبُهُ غِطَاءً وَهَبْنِيهِ لِي الطَّيْمَةُ — كَمَا تَهْبُ لِلطُّيُورِ الرِّيشُ — وَتَفْتَحُ فِي

شَرَى لِنَيْنٍ وَجَعِي بَوَسُوحٍ. ثُمَّ نَادَى خَدَمَهُ، وَقَالَ لَهُمْ - فِيمَا قَهَمْتُ مِنْ دَهْشَتِهِ وَإِشَارَاتِهِ - إِنَّهُ لَمْ يَرِ طَوَالَ حَيَاتِهِ حَيَوَاتًا فِي حَقُولِهِ يُشْبِهُنِي. ثُمَّ وَضَعْنِي عَلَى الْأَرْضِ مُتَلَطِّئًا، فَتَهَضَّتْ قَائِمًا، وَمَشَيْتُ أَمَامَهُ جَيِّئَةً وَذَهَابًا لِأَرِيَّةِ أَنْتَى عَيْرُ طَامِعٍ فِي الْمَرْبِ. ثُمَّ جَلَسُوا جَمِيعًا، مُحِيطِينَ بِي إِسَاطَةَ الدَّائِرَةِ، وَظَلُّوا يَرْقُبُونِ سَرَكَائِي، فَرَضْتُ قُبَيْعِي لِأَحَبِّبِهِمْ.

وَأُظْهِرْتُ احْتِرَافِي لِذَلِكَ السَّيِّدِ، وَانْكَفَأْتُ عَلَى قَدَمَيْهِ ضَارِعًا إِلَيْهِ - بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ - وَأَخْرَجْتُ مِنْ جَيْبِي رَكِيسَ قُودِي، وَقَدَّمْتُهُ إِلَيْهِ بِخُضُوعٍ شَدِيدٍ؛ فَقَلَّتْهُ حَذَرًا - عِدَّةَ نَرَاتٍ - بِ« دَبُّوسٍ »، كَانَ فِي نِيَابِهِ، وَلَمْ يَنْهَمْ مَا هُوَ. فَأَشْرَفْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُعِيدَ الرِّكِيسَ إِلَى الْأَرْضِ ثَانِيَةً، وَمَا أَعَادَهُ حَتَّى أَخَذْتُهُ بِيَدِي وَفَحَّيْتُهُ، وَوَضَعْتُ فِي يَدِهِ كُلَّ مَا يَخُوبُهُ مِنَ الذَّهَبِ. فَتَأَمَّلَهُ قَلِيلًا، وَأَشَارَ إِلَيَّ بِرَدِّهِ إِلَى جَيْبِي، وَلَمْ يَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا. وَقَدْ أَحْسَنْتُ أَنْ ذَلِكَ الزَّارِعُ قَدْ اقْتَضَعَ بَأْنِي آدَمِيَّ عَاقِلٌ صَغِيرٌ. وَظَلَّ يُحَدِّثُنِي كَثِيرًا وَأَنَا لَا أَفْهَمُ لِكَلَامِهِ مَعْنَى. وَكَانَ سَوْنُهُ بِكَادٍ يَصِيحُ أَذُنِي، وَهُوَ أَشْبَهُ بِبَلْبَلَةٍ طَاحُونَةٍ كَبِيرَةٍ، وَكَانَتْ أَلْفَاظُهُ مَتَرَنَةً وَاضِحَةً الْمُقَاطِعِ. فَاجْتَبَيْتُهُ عَلَى كَلَامِهِ - الَّذِي لَمْ أَفْهَمَهُ - بِكُلِّ أَلْفَاظٍ الَّتِي أَعْرِفُهَا، بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ؛ فَكَانَ

يُدْنِي أُذُنَهُ مِنِّي حَتَّى تَكُونَ عَلَى قَدِيرِ مِثْرٍ وَنَصْفِ مِثْرٍ مِنْ فَمِي، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا.

٦ - فِي نَيْتِ الصَّلَاقِ

وَبَعْدَ قَلِيلٍ صَرَفَ خَدَمَتُهُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مِئْدِيلًا طَوِيلًا نِصْفَيْنِ، ثُمَّ بَسَطَهُ عَلَى صَفْحَةِ يَدِهِ الْيُسْرَى، وَوَضَعَهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَأَشَارَ إِلَى بَازِئِ أَصْعَدَ عَلَى يَدِهِ؛ فَلَمْ أَحِدْ صُوبَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَتْ يَدُهُ أَكْبَرَ مِنْ جَسْمِي كُلِّهِ. وَفَدَحَيْتُ

أَنْ أَهْوِيَّ مِنْ يَدِهِ - إِذَا وَقَفْتُ عَلَيْهَا - إِلَى الْأَرْضِ؛ فَطَرَحْتُ نَفْسِي فَوْقَ مِئْدِيلِهِ مَتَمَدِّدًا.

ثُمَّ كُنَى الْمِئْدِيلَ عَلَى

فَطَطِي جَسْمِي كُلِّهِ، وَحَمَلَنِي فِي يَدِهِ إِلَى بَيْتِهِ. ثُمَّ نَادَى زَوْجَتَهُ لِيُرِيَهَا الْجَبِيَّةَ الَّتِي حَصَلَ عَلَيْهَا. وَمَا رَأَتْنِي حَتَّى صَرَخَتْ صَرَخَاتٍ مُفْرَعَةً، وَزَاحَتْ إِلَى الْوَرَاءِ - كَمَا تَعْمَلُ نِسَاؤُنَا إِذَا أَبْصَرْنَ زَوْجًا أَوْ صَفْدَعًا سَامًا أَوْ عَشْكَبًا -



ولكنها اطمانت إلى بد قليل ، حين رأت إشاراتي وحركاتي وأعلى .
وكيف أفلتُ إلى الإشارات التي يُبديها لي زوجها ، ثم ألفت رُؤي
وأخفيتُ حُبًا شديدًا .

ولما جاء وقتُ الظَّهْرِ أعدتُ العَشاءَ مائدةً الفداء : فرأيتُ أكْداً من
اللَّحْمِ في صَحْفَةٍ فَطَرُها نَحْوُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ قَدَمًا . وجلس الزَّارعُ
وزَوْجُهُ وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَوْلَادِهِ وَجَدَّةٌ عَجُوزٌ حَوْلَ المائدة . وما اسْتَرَوَا في
أَمَانِهِمْ ، حَتَّى أَجْلَسَنِي الزَّارِعُ فَوْقَ المائدة على مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ .

وكان ارتفاعُ المائدةِ
لا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثِينَ
قَدَمًا : فابْتَدَأْتُ عَنْ
حَافَتِهَا حَتَّى لَا أَتَقَطَّ
إِلَى الْأَرْضِ مِنْ هَذَا
الِإِرْصَاعِ الْعَظِيمِ .
وَقَطَعْتُ الزَّوْجَ



شَرِيعَةً مِنَ اللَّحْمِ وَكَثْرَةً مِنَ الْخُبْزِ ، وَوَضَعْتُهُمَا فِي طَبَقٍ مِنَ الْخَشَبِ

لَأَكُلَ مِنْهَا ؛ فَأَثَرْتُ لَهَا شَاكِرًا مَا تَقَبَّلْتُ بِهِ عَلَيَّ . ثُمَّ أَخْرَجْتُ مِنْ
جِيبِي سِكِّينِي وَشَوَّكَتِي ، وَأَعْلَلْتُ ؛ فَكَانَ ابْتِهَاجُهُمْ بِذَلِكَ عَظِيمًا .

ثُمَّ أَمَرْتُ الزَّوْجَ لِيَحْدِثَ خَدَمَهَا بِإِحْضَارِ قَدَحٍ صَغِيرٍ ، وَمِلْأَتُهُ مَاءً ؛
فَلَمَّا اسْتَطْبَعُ أَنْ أَرْفَعَهُ إِلَيَّ فَمَيَّ إِلَّا بَدَّ جُهْدٍ شَدِيدٍ . ثُمَّ أَشَارَ إِلَيَّ الزَّارِعُ أَنْ
أَقْرَبَ مِنْ صَحْفَةِ الطَّعَامِ ، فَلَبَّيْتُ إِثَارَتَهُ مَسْرَعًا فِي سِرِّي فَوْقَ المائدةِ ،
فَتَسَكَّاهُ بِيْنِي - فِي طَرِيقٍ - قِطْعَةً صَغِيرَةً مِنَ الْخُبْزِ ، فَسَقَطَتْ عَلَى وَجْهِهِ .
وَلَكِنِّي - لِحُسْنِ حِظِّي - لَمْ أَصَبْ بِسُوءٍ ، فَوَقَفْتُ عَلَى قَدَمَيْ ، فَرَأَيْتُ
عَلَى أَسَارِيرِ أَمَارَاتِ الْعُطْفِ وَالْإِسْفَاقِ ، وَدَلَالِ الْخُتُو . فابْتَسَمْتُ لَهُمْ
مُتَخَبِّئًا عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، شَاكِرًا عَطْفَهُمْ عَلَيَّ ، وَأَظْهَرْتُ لَهُمْ أَنَّنِي لَمْ أَصَبْ
بِسُوءٍ ، وَسِرْتُ نَحْوَ السَّيْرِ لِأَلْثِمَ يَدَهُ . وَمَا دَوَّتُ مِنْ أَسْرَرِ أَوْلَادِهِ -
وَهُوَ طِفْلٌ حَبِيبٌ لَمْ يَمُدَّ المَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ - حَتَّى أَتَشَكَّ بِسَاقِي ، وَرَفَعَنِي
فِي الْهَوَاءِ . فَاثَلَاثَ نَفْسٍ رُغْبًا وَهَلَمًّا ، وَأَسْرَعَ أَبُوهُ فَأَتَقَدَّرَنِي مِنْ يَدِهِ ،
وَصَفَعَنِي عَلَى أَذُنِهِ الْيُسْرَى - خَرَاءَ وَجْهِهِ - صَفْعَةً قَوِيَّةً ، لَوْ لَعَلَّمَهَا
كَوْكَبَةً مِنْ فُرْسَانِنَا لِأَمَانَتِهِمْ جَمِيعًا !

ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَكْفُفَ عَنِ الْأَكْلِ وَيَذْهَبَ بَعِيدًا عَنِ المائدةِ ، عِقَابًا لَهُ عَلَى

عمله . ولكنني خَشِيتُ أَنْ يَضْطَئِبَ عَلَى ذَلِكَ الطِفْلُ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ أَكْثَرَ
الأطفال — في مثل هذه السن — حَقَقِي مَتَهَوِّرُونَ . وكثيراً ما تَدْفَعُهُمْ
حَمَاقَتُهُمْ وَهَوِّهِمْ إِلَى إِيْذَاءِ الطُيُورِ وَالْأَرْنَاسِ وَصِغَارِ الْكِلَابِ . فَجَعَلْتُ
عَلَى رُكْبَتَيَّ مَسْتَقْلماً السِّدَّ عَلَى وَلَدِهِ لِيَصْفَحَ عَنْهُ ؛ فَأَجَابَ السِّدُّ رَجَائِي ،
وَصَفَحَ عَنْ طِفْلِهِ ، وَأَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ الْمَائِدَةِ . فَقَدَّمْتُ مِنَ الطِفْلِ ، وَلَقِئْتُ
بِيهِ ؛ فَابْتَهَجَ وَسُرِّيَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَصْبَحَ صَدِيقاً حَمِيماً لِي مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

٧ — مَازِي مُخَرَّجَةٌ

وإِنِّي لَا تَذْهَبُ مَعَهُمْ — وَأَنَا آمِنٌ مُطْمَئِنٌّ — إِذْ قَرَرْتُ عَلَى الْمَائِدَةِ قِطْعُ
السِّدَّةِ — الْمُدَّكَلُ الْمُخْبُوبُ — قَفْزَةً عَنِيَةً ؛ فَاحْدَثَتْ حَلْبَةً وَصَوَّاهُ
أَزْجَعَتَانِي وَمَلَأَتَا قَلْبِي خَوْفاً . وَكَانَ ذَلِكَ الْقِطْعُ فِي مِثْلِ صَحَافَةِ ثَلَاثَةِ ثِرَاقٍ ،
فَإِذَا مَا سَمِعْتُ لِمَوَائِهِ مِثْلَ قَصْفِ الرُّعُودِ وَجَلَّجَلَّتْهَا . وَقَدْ رَأَيْتُ السِّدَّةَ
تَحْنُو عَلَيْهِ وَتُدْلِكُهُ وَتَقْدِمُ إِلَيْهِ الطَّلَامَ ، وَهِيَ تُدَاعِيهِ وَتُرَبِّئُهُ ؛ فَامْتَلَأَتْ
نَفْسِي رُغْباً مِنْ رُؤْيَاهُ هَذَا الْحَيَوَانَ الْقَرَسَ عَلَى الطَّرْفِ الْآخَرِ مِنَ الْمَائِدَةِ ،
وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ مَسَافَةٌ حَمِيقَةٌ قَدَمًا . وَكَانَتِ السِّدَّةُ مُمَسِّكَةً بِقَفْلِهَا حَتَّى

لَا يَنْقُصُ عَلَى فَبَرْدِي — كَمَا تَزْدَرِدُ قِطَاطُنَا الْحِشْرَاتُ — وَلَكِنْ اللَّهُ
كَتَبَ لِي السَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ؛ فَلَمْ يَلْتَفِتْ الْقِطْعُ إِلَيَّ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَجْلَسَنِي
السِّدُّ عَلَى بُعْدٍ مِثْرَيْنِ وَصِغْفِرَ مِثْرَ مِنَ الْقِطْعِ ، لِيَرَى كَيْفَ أَصْنَعُ . وَقَدْ
كُنْتُ وَائِثاً كُلَّ النَّفَقَةِ أَنَّ الْجَبْنَ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَاطِنِ كَثِيرٌ مَا يَقُودُ
الْإِنْسَانَ إِلَى خُتْفِهِ . فَإِذَا هَرَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيَوَانٍ مَغْتَرَسٍ — أَوْ ظَهَرَ عَلَيْهِ
الْخَوْفُ — تَمَتَّعَهُ ذَلِكَ الْحَيَوَانُ وَطَمِعَ فِيهِ . وَأَسْرَعَ إِلَى أَقْبَرِيهِ .
فَاعْتَرِضْتُ أَنَّ أَلْبَأً إِلَى الصَّبْرِ ، وَأَعْتَصِمَ بِشَجَاعَتِي أَمَامَ هَذَا الْقِطْعِ الشَّوْخَسِ
الْقَرَسِ فَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ نَحْوَ ثَمَانِي عَشْرَةَ إصْبَعاً — وَأَنَا رَاطِبُ الْجَبَائِثِ —
فَرَأَحَ الْقِطْعُ أَمَامِي تَرَاخُعَ الْحَافِيهِ الْحَذَرِ .

أَمَّا خَوْفِي مِنَ الْكِلابِ فَقَدْ كَانَ أَقْلَ مِنْ خَوْفِي مِنَ الْقِطَاطِ ؛ فَقَدْ
دَخَلَ الثَّرْفَةُ ثَلَاثَةً كِلَابٍ أَوْ أَرْبَعَةً — فِيمَا أَذْكَرُ — وَرَأَيْتُ فِي هَذِهِ
الْكِلَابِ كَلْباً كَبِيراً جَدّاً . وَهُوَ فِي مِثْلِ صَحَافَةِ أَرْبَعَةِ أَفْيَالٍ ، وَرَأَيْتُ
كَلْباً آخَرَ مِنْ كِلَابِ الصَّبْرِ ، بِعُوقُهُ طَوَّلاً ، وَيَحِلُّ عَنْهُ صَحَافَةٌ .

وَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ طَعَامِ الْفَدَاءِ حَتَّى دَخَلْتُ إِحْدَى الثَّرَصِيحَاتِ ،
وَهِيَ تَحْمِلُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا رَمِيماً لَمْ تَتَجَاوَزْ سِتْنَةَ الْحَوْلِ . وَمَارَرْتَنِي ذَلِكَ

الرَّضِيعُ حَتَّى مَلَأَ الْبَيْتَ صُرَاخًا مَرَعًا. وَكَأَنَّمَا
حَسِبْتُ دُمِيَّةً يَتَاهُو بِهَا: فَأُمَسَكْتَنِي أُمُّهُ وَأَذْنَنِي
إِلَيْهِ. وَمَا قَعَلْتُ حَتَّى أَتُكَّ بِذَلِكَ الرَّضِيعِ،
وَوَضَعَ رَأْسِي فِي فِيهِ. فَصَرَخْتُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَعِ
وَالرُّغْبِ: فَذَعِرَ الطُّفْلُ، وَأَلْقَانِي مِنْ يَدِهِ،
فَهَرَنْتُ. وَقَدْ كَانَ رَأْسِي لَا بُدَّ مَهْمًا لَوْ لَمْ أَقَعْ
عَلَى تَوْبِ أُمِّهِ الَّذِي فَرَسْتُهُ تَحَنِّي. وَقَدْ حَاوَلْتُ الْمُرُضِعَةَ أَنْ تَتَوَضَّعَ
رَضِيعُهَا بِوَسَائِلٍ أُخْرَى، فَلَمْ تُفْلِحْ. فَلَمَّا عَجَزْتُ عَنْ تَسْلِيَتِهِ أَرْضَعْتُهُ،
فَكَلَّفْتُ عَنِ الصَّبَاحِ!



وَلَمَّا أَشْبَهْنَا مِنَ الْفَدَاءِ، تَأَلَّبَ السَّيِّدُ لِلْخُرُوجِ، وَقَدْ أَوْصَى بِنِ السَّيِّدَةِ
خَيْرًا: كَمَا قَهَمْتُ مِنْ إِشَارَاتِهِ الَّتِي أَشْرَسَنِي بِحِرْصِهِ عَلَى الْغِيَاةِ بِأَمْرِي..
وَشَرَرْتُ بِحَاجَةِ شَدِيدَةٍ إِلَى الرُّقَاوِ - بَعْدَ أَنْ جَهَدَنِي النَّعْتُ -
وَفَطَلْتُ رَبَّةَ الدَّارِ إِلَى ذَلِكَ: فَأَرَقَدْتَنِي فِي سَرِيرِهَا، وَغَطَّنِي بِمِنْدِيلٍ
أَبْيَضٍ لَا يَقِلُّ فِي حَجْمِهِ عَنْ شِرَاعِ أَكْبَرِ سَفِينَةٍ حَرَبِيَّةٍ.
وَمَا أَطْبَقْتُ حَنَنِي حَتَّى اسْتَلَعْتُ لَيْتُومَ عَمِقٍ. وَقَدْ رَأَيْتُ - فِي

مَتَارِي - أَنَّنِي قَدْ عُدْتُ إِلَى مَنْزِلِي، وَلَتَمِيتُ بِالْقَرَبِ مِنْ أَسْرَتِي: فَفَرَحَ
بِعَوْدَتِي وَلَدِي وَابْنَتِي وَزَوْجِي. ثُمَّ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ تَوْبِي بِدُ سَاعَتَيْنِ،
فَرَادَتْ لَوْعَتِي وَسَبِينِي إِلَى وَطْنِي وَأَهْلِي، وَوَجَدْتُنِي وَحِيدَةً فِي حُجْرَةٍ فَسِجَّةٍ
يَرِيدُ عَرْضُهَا عَلَى ثَلَاثِمِائَةِ قَدَمٍ، وَارْتَعَاها عَلَى مَائَتَيْ قَدَمٍ، وَلَا يَقِلُّ
عَرْضُ السَّرِيرِ عَنْ ثَمَانِيَةِ عَشْرَ مَرَّةً. وَكَانَتْ رَبَّةُ الدَّارِ قَدْ أَغْلَقَتْ عَلَى
الْبَابِ. وَذَهَبَتْ لِتُنْجِزَ أَعْمَالَ يَتِيمَتِهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِي أَنْ أَهِيْطَ إِلَى
الْأَرْضِ، لِأَزِيَّتَاعِ السَّرِيرِ عَنْهَا بِمِقْدَارِ سَبْعَةِ أَمْتَارٍ. وَقَدْ اسْتَدْتُ حَاجَتِي
إِلَى الْخُرُوجِ، وَلَمْ يَكُنْ صَوْتِي - إِذَا نَادَيْتُ - يَبْلُغُ سَمْعَ سُكَّانِ
الْبَيْتِ، لِجُفْدِ التَّسَافَرِ بَيْنِي وَبَيْنَ حُجْرَةِ الْمَطْبَخِ الَّتِي ذَهَبَتْ إِلَيْهَا تِلْكَ
الْأَشْرَةُ. عَلَى أَنَّنِي نَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي الضَّعِيفِ، فَلَمْ يَسْمَعْ أَحَدٌ!

٨ - صِرَاعٌ عَنيفٌ

وَرَأَيْتُ قَارِئِينَ يَتَكَلَّمَانِ سَائِرَ السَّرِيرِ، وَقَدْ هَالَتْنِي مَخَانِسُهُمَا وَكِبَرُ
حَجْمِهِمَا. ثُمَّ أَقْبَلَ الْقَارِئَانِ وَمَعَا يَجْرِيَانِ، فَدَا أَحَدُهُمَا مِنْ وَجْهِ: فَفَرَعْتُ
- مِنْ ذَلِكَ - أَشَدَّ الْفَرَعِ، وَكَلَّمْتُ سَبِيْنِي لِلدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِي.

فَأَسْرَعَ يَمْدُو هَارِبًا ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ بِالنَّجَاةِ . وَهَكَذَا انْخَلَتْ
الْمَرْكُزَةُ عَنْ قَوْزِي وَانْتَصَارِي عَلَى الْقَارَيْنِ ؛ فَاسْتَلْقَيْتُ عَلَى ظَهْرِي
ثَابِتَةً لِأَسْتَرِيحَ مِنَ التَّعَادِ ، وَاسْتَلْقَيْتُ لِلْأَفْكَارِ .

وَقَدْ كَانَ كُلُّ قَارٍ مِنْهَا فِي مِثْلِ ضَخَامَةِ أَكْبَرِ كَلْبٍ عِنْدَنَا . وَقَدْ
كُنْتُ وَاثِقًا مِنْ شِرَاسِيَتِهِمَا ؛ فَحَدِّثُ اللَّهُ عَلَى أَنْ أَتَقَدَّرَ فِي مِنْ شِرَّهِمَا ،
وَنَصَّرَنِي عَلَيْهِمَا . وَلَوْ أَنَّنِي خَلَقْتُ حُسَامِي قَبْلَ أَنْ أُنَامَ ، وَوَجَّهْتُ
هَذَيْنِ الْقَارَيْنِ وَأَنَا أَعْرَلُ ، لَأَفْتَرَسَانِي ، لَا مَحَالَةَ .

٢٥٥

وَبَعْدَ وَقْتٍ قَلِيلٍ جَاءَتِ رَبَّةُ الدَّارِ . وَمَا فَتَحَتْ بَابَ الْعُجْرَةِ ،
وَرَأَتْني مُخَضَّبًا بِالْدَّمِ ، حَتَّى أَسْرَعْتُ إِلَيَّ ،
وَأَمَسَتْني يَدَهَا ، وَأَدْنَتْني مِنْ بَصَرِهَا
لِتَطْمَئِنَّ عَلَيَّ . فَأَثَرْتُ بِإِصْبَعِي مُتَبَسِّمًا إِلَى
حَيْثُ الدَّارُ الَّذِي صَرَغْتُ ، وَأَفْهَمْتُهَا أَنَّنِي لَمْ أَصَبْ
بِشَيْءٍ ؛ فَفَرَحَتْ لِسَلَامَتِي ، وَأَبْدَتْ إعْجَابَهَا
بِشَجَاعَتِي !



وَقَدْ طَمِعَ الْقَارَانِ فِي لَمَّا رَأَاهُ مِنْ شَأَلَةِ حُصَى - وَكَانَا غَايَةً
فِي الْفِتْحَةِ - فَهَجَمَا عَلَى يُحَاوِلَانِ
افْتِرَاسِي .



فَلَبِثْتُ أَحَدَ الْقَارَيْنِ ضَرْبَةً
حُسَامٍ عَنِيفَةٍ ؛ فَشَقَقْتُ بَطْنَهُ لِلْحَالِ ،
وَحَرَّ صَرِيحًا عَلَى الْأَرْضِ مُصْرَجًا
يَدَمِهِ .
وَمَا رَأَى الْقَارُ الْآخَرَ مَضْرَعًا
صَاحِبِهِ ، حَتَّى خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْهَلَاكَ ؛

ثم أَشْرْتُ إليها أن تَضَعَنِي على الأرض ، فلم تَرَدَّدْ في تَلْبِيَةِ
 طَلْبِي . فَأَشْرْتُ إليها بِأَحْزَانِي أَنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْخُرُوجِ ، فَأَذِنَتْ لِي فِي
 ذَلِكَ . وَكَأَنَّمَا فَهَمْتُ بِذِكْرِهَا أَنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْخُرُوجِ لِضَرُورَةٍ حَاطِيَةٍ
 لَا يَخْفِيهَا غَيْرِي ؛ فَأَشَارَتْ إِلَى الْبَابِ الَّذِي يَصُودُنِي إِلَى الْحَدِيقَةِ ،
 وَرَفَعْتَنِي فِي يَدِهَا ، وَسَارَتْ بِي قَلِيلًا ، ثُمَّ وَضَعْتَنِي عَلَى الْأَرْضِ بَيْنَ وَرَقَتَيْنِ
 مِنْ أَوْراقِ الْبَقُولِ ، وَعَادَتْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ .

الفصل الثاني

١ - بِنْتُ الزَّارِعِ

كَانَ لِلزَّارِعِ بِنْتُ فِي الثَّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِهَا ، وَكَانَتْ - عَلَى صِغَرِ
 سِنِهَا - حَصِيغَةً نَادِرَةً الذِّكَاءَ . وَقَدْ عُيِّنَتْ لِشَأْنِي مُدَّةً إِقَامَتِي هُنَاكَ ،
 وَاسْتَأْذَنْتْ أُمِّي فِي أَنْ تُعِدَّ لِي - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - سَرِيرًا صَغِيرًا يُنَاسِبُ
 مَسَآلَةَ جِسْمِي ؛ فَلَمْ تَرَ أَصْلَحَ مِنَ الْأَرْجُوحةِ الَّتِي اخْتَارَتْهَا - مِنْ قَبْلُ -



لِدُخَانِهَا . فَهَيَّأتْ لِي تِلْكَ الْأَرْجُوحةَ الصَّغِيرَةَ ، وَوَضَعَتْهَا فِي صُنْدُوقِ صَغِيرٍ
 عَلَى مِثْقَدَةٍ صَغِيرَةٍ مُنْعَقَةٍ فِي وَسْطِ الْحُجْرَةِ ، حَتَّى تُؤْمِنَنِي شَرُّ الْبُيْرَانِ .
 وَقَدْ ظَلَّتْ هُنَا الْأَرْجُوحةُ سَرِيرَ يَوْمِي مُدَّةً إِقَامَتِي فِي ذَلِكَ
 الْبَيْتِ الْكَرِيمِ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الطُّفْلَةُ غَايَةً فِي الْوَفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ وَالِاسْتِغْلَامَةِ ؛ فَهِيَ تَجْمَعُ

— إلى مَآزِنِهَا وَجَدَتْهَا — حَاقًا وَعَظْفًا نَادِرَيْنِ . وقد حَاطَتْ لِي سِتَّةَ قُصَّائِنِ مِنْ أَثْوَابِ هَذِهِ الْبِلَادِ ؛ وَهِيَ أَثْوَابُ بَيْضٍ ، غَايَةُ فِي الرِّقَّةِ ، وَإِنْ كَانَتْ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — لَا تَقُلُّ فِي كَثَافَتِهَا عَنِ الْأَثْوَابِ الَّتِي يُصْنَعُ مِنْهَا نِيرَاعُ أَكْبَرِ السُّنَنِ عِنْدَنَا . وَكَانَتْ تَفْسِيلُ مِيَابِي ، وَتُعْنَى بِشَأْنِي عِنَايَةً فَاحِشَةً ، كَمَا كَانَتْ تَحْرُسُ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَى تَقْلِيْبِي لِقَتَّتِهِمْ ، فَلَا تَتْرَكَ فُرْصَةً وَاحِدَةً تَتَرَكُ دُونَ أَنْ تَكُنْزَهَا ؛ فَإِذَا أَتَرْتُ بِأَصْبَحِي إِلَى شَيْءٍ بَادَرَتْ بِتَسْمِيَّتِهِ لِي ؛ فَلَمْ يَمُرَّ عَلَى وَقْتٍ قَصِيرٍ حَتَّى أَصْبَحْتُ أُسَمَّى مَا أُرِيدُ . وَقد أَطْلَقْتُ عَلَى اسْمِهِ «الْقَزَمَ» ، كَمَا أَطْلَقْتُ عَلَيْهَا اسْمَ «الْحَاضِيَةِ» ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ لِي — عَلَى صِفَتِهَا — كَالْأَلَمِ الرَّؤُومِ . وَقد كَانَ لَهَا أَكْبَرُ الْفَضْلِ فِي تَعْلُمِي نَفْسَ اللَّهِ تَعَالَى . وَلَسْتُ أَنْسَى عَظْفَهَا عَلَيَّ ، وَجِبِلَ صُنْعِهَا بِي ، مَا حَبِيتُ .

٢ — الضَّيْفُ الْفَقِيلُ

وَقد ذَاعَ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الدِّيْنَةِ أَنَّ أَحَدَ أَغْنِيَاءِ قَدِ عَمَّرَ — فِي حَقْلٍ مِنْ حُقُولِهِ — عَلَى حِيَوَانٍ صَغِيرٍ الْجِسْمِ ، فِي صُورَةِ آدَمِيَّةٍ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَقْلِيدِ الْإِنْسَانِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ وَكَلَامِهِ ، وَأَنَّهُ يَعْرِفُ كَثِيرًا مِنْ أَقْفَانِ لِقَتَّتِهِمْ

وَيَسِيرُ عَلَى قَدَمَيْهِ كَمَا يَسِيرُ النَّاسُ ، وَهُوَ دَمِثُ الْأَخْلَاقِ ، سَهْلُ الْفِيَادِ ، لَطِيفُ الْمُحَاشَرَةِ ، يُبَلِّغُنِي مِنْ يُنَادِيهِ ، وَيُطْبِعُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ ، وَهُوَ غَايَةُ فِي ضَاكَةِ الْجِسْمِ ، وَرِقَّةِ الْبَشَرَةِ ، وَبَيَاضِ اللَّوْنِ .

...

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ وَقد أَحَدُ الْحَبْرَانِ إِلَى بَيْتِ السَّيِّدِ لِيَتَحَقَّقَ صِدْقَ مَا سَمِعَهُ عَنِّي . وَكَانَ ذَلِكَ الضَّيْفُ صَدِيقًا حَمِيمًا لِرَبِّ الدَّارِ ، وَهُوَ زَارِعٌ مِثْلُهُ ، وَكَانَ شَيْخًا طَاعِنًا فِي السَّنِ . وَمَا أَظْهَرَ لِلْسَّيِّدِ شَوْقَهُ إِلَى رُؤْيَايَ ، حَتَّى أَحْضَرَنِي إِلَيْهِ ، وَوَضَعَنِي فَوْقَ الْمَائِدَةِ ، وَأَمَرَني بِالسَّيْرِ عَلَيْهَا أَمَامَهُ ؛ فَلَمْ أَتَرُدُّ فِي إِطَاعَةِ أَمْرِهِ . ثُمَّ سَلَّطْتُ حُسَابِي أَمَامَهُ ، وَأَعْمَدْتُهُ ثَانِيَةً ، وَلَمْ أَذْخِرْ وَسْعًا فِي تَكْرِيمِ الضَّيْفِ ، وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِ ، وَإِظْهَارِ كُلِّ اخْتِرَامٍ لَهُ . وَقد حَبِيتُهُ بِأَمْنِهِ ، وَرَحَّبْتُ بِهِ ، وَسَأَلْتُهُ مُتَادِّبًا عَنْ صِحَّتِهِ ، وَلَمْ أَنْسَ شَيْئًا مِمَّا أَشَارَتْ عَلَيَّ بِهِ حَاضِنَتِي الصَّغِيرَةُ . وَكَانَتْ الشَّيْخُوخَةُ قَدْ أَضْمَنَتْ بَصَرَهُمَا الشَّيْخَ الطَّاعِنَ فِي السَّنِ ؛ فَأَخْرَجَ مِنْطَارَهُ لِيَتَنَبَّهَ لَهُ صُورَتِي ، فَلَمْ أَتَسَالَكْ أَنْ أَمْسِكَ . وَكَأَنَّمَا أَدْرَكَ الْأُفْرَادُ الْأُفْرَةَ يَسْرُضِحْكِي ، فَأَغْرَبُوا فِي الضَّحِكِ جَمِيعًا ؛ فَامْتَحَصَ الشَّيْخُ ، وَظَهَرَتْ عَلَى أَسَارِيرِهِ أَمَارَاتُ

الْقَصَبِ ، وَاسْطَفَنَ عَلَى . وَلَكِنَّهُ أَسْرَّ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، وَعَزَمَ عَلَى الْإِنْصَافِ مِنِّي فِي الْعَالِ . فَأَوْحَى إِلَيَّ رَبِّي أَنِّي لَمْ يَرْضَ فِي الْأَسْوَاقِ لِي كَيْسَبٌ بِذَلِكَ مَالًا طَالِيًا ، وَأَقْنَعَهُ بِأَنِّي جَمِيعُ الشُّكَايِ - فِي مُخْتَلِفِ الْمَدُنِ - سَيَقُولُونَ عَلَى رُؤْيَايَ ، وَلَا يَتَرَدَّدُونَ فِي دَفْعِ مَا يَطْلُبُهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَجْرِ .

وَفِي صَبَاحِ الْفَدْرِ أَخْبَرَنِي الْحَاضِرَةُ الصَّغِيرَةُ بِكُلِّ مَا قَالَتْهُ الشَّيْخُ الْقُدُّوسُ . وَقَدْ بَكَتُ مِنْ ذَلِكَ بِدُمُوعِ غَزِيرَةٍ ، وَخَبَّيْتُ أَنِّي يُصِيبُنِي أَذَى مِنْ بَعْضِ النُّظَارَةِ الَّذِينَ قَدْ يَدْفَعُهُمُ الْقُدُّوسُ إِلَى الْمَغْفِرَةِ ، وَأَكْثَرُهُمْ قِسَاءٌ غِلَاطُ الْقُلُوبِ .

وَقَدْ أَظْهَرْتُ لِي أَلْفَهَا الشَّدِيدَ مِنْ مُتَرَجِّحِ ذَلِكَ الشَّيْخِ ، وَقَالَتْ لِي : « لِيَأَيُّ قَدِّ وَعَدَانِي - مِنْ قَتْلٍ - بِأَنَّكَ سَتَكُونُ لِي وَخَدِي ، وَلَكِنَّهُمَا أَخْلَقَا وَعَدَهُمَا حِينَ لَاحَتْ لهُمَا الْفَائِدَةُ ، كَمَا أَخْلَقَا وَعَدَهُمَا - فِي الْعَامِ الْمَاضِي - حِينَ أَعْلَيَانِي حَسَلًا ، ثُمَّ بَاعَاهُ لِأَحَدِ الْقَصَّابِينَ بِدَ أَنْ سَمَّيْتُهُ ، وَلَاحَتْ لهُمَا الْفَائِدَةُ فِي بَيْعِهِ . »

أَمَّا أَنَا ، فَقَدْ كُنْتُ - عَلَى الْحَقِيقَةِ - أَقْلُ أَلَمَاءِهَا ؛ لِأَنِّي كُنْتُ أَشْعُرُ

بِشَوْقٍ شَدِيدٍ إِلَى رُؤْيَا النَّاسِ وَالْإِخْتِلَاطِ بِهِمْ ، كَلَّمْتُ أَحَدًا فِي ذَلِكَ وَسِيلَةً إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الْبَلَادِ ، أَوْ نَتَاحَ لِي فُرْصَةٌ لِلْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِي .

٣ - فِي أَسْوَاقِ الْمَدُنِ

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ أَعَدَّ السَّيِّدُ كُلَّ مُعَدَّاتِ السَّفَرِ ، عَمَلًا بِصَحِيحَةِ صَاحِبِهِ الشَّيْخِ . ثُمَّ وَصَّعَنِي - فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّالِي - فِي صُنْدُوقِ صَغِيرٍ ، وَسَارَ بِي إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُجَاوِرَةِ ، وَمَعَهُ ابْنَتُهُ الصَّغِيرَةُ . وَكَانَ الصُّنْدُوقُ مُتَقَنَّزًا ، وَفِيهِ عِدَّةٌ تُقَوِّبُ لِتَجْدِيدِ الْمَوَادِّ حَتَّى لَا أَخْتَنِقَ . وَقَدْ عُيِّنَتْ بِي تِلْكَ الْحَاضِرَةُ الرَّفِيقَةُ ؛ فَوَصَّعَتْ فِي أَسْفَلِ الصُّنْدُوقِ فِرَاشًا وَتَبِيرًا ؛ حَتَّى لَا أَتَأَلَّمُ فِي أَمْتَاءِ الطَّرِيقِ . وَلَمْ يَكْبُدْهَا ذَلِكَ شَيْءٌ عَنَاهُ ؛ فَقَدْ وَضَعَتْ فِي الصُّنْدُوقِ الْفِرَاشَ الَّذِي كَانَتْ قَدْ أَعَدَّتْهُ - مِنْ قَبْلُ - لِيَوْمِي فِي أَرْجُوْحَرِ دُمْنِيهَا الصَّغِيرِ . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَاشَ الدُّمْنِيَةِ الَّتِي أَحَلَّنِي الْحَاضِرَةُ مَكَانَتَهَا ، وَحَصَّنِي بِكُلِّ عِنَانِيهَا ، بِدَ أَنْ اسْتَبَدَّلْتَنِي بِالْأُثْمِيَةِ ؛ لِأَنَّ الدُّمْنِيَةَ كَانَتْ - لِحُسْنِ حَقْلِي - جَامِدَةً صَالِحَةً ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُجِيرَ جُوبَانًا . أَمَّا أَنَا ، فَقَدْ كُنْتُ - عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ -

دُمِيَّةً نَاطِقَةً ، رَحِيْقَةً الْحَرَكَاتِ ، طَعْمَةً ، مُلَبَّبَةً كُلِّ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا .
 وَلَا أَكْثَمُ الْقَارِيءِ أَنِّي عَانَيْتُ - فِي تِلْكَ الرُّخْلَةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي لَمْ
 تَتَجَلَّوْزَ نِصْفَ سَاعَةٍ - كُلِّ أَنْوَاعِ الْآلَامِ . قَدْ كَانَ الْجَوَادُ يَسِيرُ
 بِسُرْعَةٍ وَهُوَ يَعْلُو وَيَهْطُ فِي أَتْنَاءِ سَيْرِهِ : فَيَرْجُوْنِي فِي الصُّدُوقِ رَجَاءً
 عَنِيفًا . وَكَانَ الْجَوَادُ - لِضَخَامَتِهِ - يَقْطَعُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا نَحْوَ
 أَرْبَعِينَ قَدَمًا . وَكُنْتُ فِي الصُّدُوقِ أَشْبَهَ بِغَيْتَةٍ تَعْلُو وَيَهْطُ وَسَطَ
 عَاصِفَةٍ هَوَّجَاءَ ، وَكَانَتْ الْمَسَافَةُ الَّتِي قَطَعْتُهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْقَصِيرِ
 مَسَافَةً طَوِيلَةً جِدًّا . وَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ نَزَلَ السَّيِّدُ عَنْ حَوَادِثِهِ ،
 وَتَرَجَّلَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى فُنْدُقٍ كَبِيرٍ ، فَكَتَرَاهُ مِنْ صَاحِبِهِ ، وَأَرْسَلَ
 الْمُتَادِنِينَ يَطْلُقُونَ شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ وَدُرُوبَهَا ؛ لِيُدْرِعُوا بَيْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ
 أَخْضَرُوا حَيَوَانًا صَغِيرًا يُمَازِلُ الْإِنْسَانَ فِي حِسِّهِ وَشَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ
 وَكَلَامِهِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ الْأَدِيمِي الضَّئِيلَ يَنْطَلِقُ - كَمَا يَنْطَلِقُ النَّاسُ -
 وَيَقُومُ بِالْعَلَابِ عَجِيبَةٍ فِي مَهَارَةٍ فَائِقَةٍ . فَاقْبَلِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
 لِيَسْتَفْتَقُوا صِدْقَ مَا سَمِعُوا . وَرَأَى السَّيِّدُ أَنَّ بَقْلَ مَنْ رَحِمَهُمْ : فَلَمْ يَسْمَعْ
 - فِي كُلِّ مَرَّةٍ - إِلَّا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ رَجُلًا بِالْذُّخُولِ وَالْمُشَاهَدَةِ .

وَقَدْ دَهَشَ النَّاسُ لِرُؤْيِي ، وَخَفِيَ حَرَكَاتِي ، وَأَنَا أَسِيرُ عَلَى الْمَائِدَةِ
 خَبِيْثَةً وَذَهَابًا ، وَأَجِيبُ عَنْ أَشْيَائِهِمْ بِقَدْرِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَفْهَمَ مِنْ لُغَتِهِمْ .
 وَكُنْتُ أَحْيَى النَّظَّارَةَ - فِي الْخَبْرَاءِ وَالْأَدَبِ - وَفَقَّ إِرْشَادَاتِ الْحَاصِنَةِ
 الصَّغِيرَةِ . وَقَدْ اتَّخَذْتُ مِنَ الدُّسْتَانِ الَّذِي أَعْطَيْتِهِ الْعَاصِنَةُ - وَكَانَتْ
 تَقْصِمُهُ فِي إِسْمِهَا الْوُشَطَى حِينَ تَغِيْطُ الْمَلَابِسَ - قَدَحًا أَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ .
 وَكُنْتُ أُجَرِّدُ سِنِّي وَأُظْهِرُ أَمَامَهُمْ كُلِّ مَا تَعَلَّمْتُهُ - فِي حَدَاتِي - مِنْ
 صُرُوبِ الْفُرُوسِيَّةِ . وَقَدْ أَعْطَيْتِي الْحَاصِنَةُ شَيْئًا مِنَ الْأَعْوَادِ لِأَتَّخِذَ مِنْهُ



جِرَابًا أَتَمَّلُ بِهَا دَوْرَ
 الْفَارِسِ الصَّغِيرِ . وَقَدْ
 صَعِدْتُ إِلَى الْمَائِدَةِ
 فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الثَّنِي
 عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَمَثَلْتُ
 - فِي كُلِّ مَرَّةٍ -

تِلْكَ الْأَدْوَارَ . وَمَا انْقَضَى النَّهَارُ حَتَّى ارْتَمَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ لِنِدَةِ

مَا لَأَبْتُ مِنَ الْأَعْيَاءِ وَالْمُسْتَفْعِينَ

وكان النظارة شديدي الإعجاب بهاتري ؛ فلا يخرجون حتى يخبروا
من يعرفون بما رأوه من عرائب ومذهبات. وقد بلغ زحام المجهور
أشدّه ، ولم يمدّ بطين صبرا على الانتظار ، حتى هم - عِدّة مرات -
بافتحام الأبواب ، والدخول عنوة .

ورأى السيد - في ذلك - وسيلة ناجحة للكسب والعي ، فخشى
أن يصيبني مكروه ، أو يلحقني شيء من أذى بعض النظارة الفضوليين ،
فحظر عليهم الدنو مني ، وجعل الحاضنة قريبة من مكاني ، حتى تمنع عني
كلّ أذى ، وأجلس النظارة على مسافة بيدي مني ، حتى لا تاتلي أي
بدر بؤه .

على أن تلميذا خيئا أتى عليه لؤمه إلا أن يقذفني بجوزة صغيرة ،
لا يقل حجمها عن حجم أكبر بطيخة رأيته . وقد صوبها الخيث إلى
رأسي ، وأطلقها من يده بقوة ، ولكنها - لحسن حظي - قد أخطأتني ،
ولو قد أصابت رأسي لحطنته تحطبا . وما ألتاها حتى غضب السيد
والحاضنة والنظارة على ذلك التلميذ الخيث ، وعنفوه على فعلته أشدّ

تصغير ، وطرده من المكان .

ثم أعلن السيد أنه سيستأنف عمله في يوم السوق التالي . وقد ارتسيت
على فراشي وأنا محبوس القوي ، وقد بُع صوتي ، بعد أن ظلمت أمثل
وأنتكم نمانى ساعات كاملة .

ولما رجع السيد إلى بيته وقد عليه حبره - رجالا ونساء وأولادا -
ليتحققوا صدق ما سيعوه عني وكانت أنباء قد ذاعت في كل مكان . ورأى
السيد وفور ما بعثني من المال - إذا تابع عرضي في الأسواق - فعهد
بأعماله المنزلية والزراعية إلى وكيل أمين ، ثم ودع زوجته - بعد أن أعد
كلّ المعدادات لسفر طويل - وسافر في السابع عشر من أغسطس
عام ١٧٠٣ م . وبعد شهرين وصلنا إلى قصبة إميراطوريّة « بربدنج » ، وهي
على بعد ألف وخمسمائة ميل من بلده .

وقد ركب السيد جواده ، وأزود ابنته ، فحملني في علبة صغيرة
قدّها إلى حزامها ، بعد أن بطنت داخلها بطانية كثيفة من الجوخ . وقد
اعزم السيد على أن يعرضني في أسواق المدن والضواحي والقرى الشامية
التي يمر عليها في طريقه . وكنا نقطع في كل يوم مسافة تتراوح بين ثمانين

ميلة ومائة ميل . وكانت العاضنة كثيرا ما تشكو إلى أبيها إسرار الجواد في سيرة ، وتطلب إليه التمهّل والهدوء ، محافظة على راحتي . وكذلك كانت تخرجني من الثمالة - بين حين وحين - لأستشق الهواء ، وأرى البلاد التي نمرث عليها . وقد عجزنا سنة نهيرات ، كانت - على صيرها - أعرض وأعمق من نهر النيل . وكان أضيق عذري في هذه البلاد أكثر اتساعا من نهر « التاميز » . وقد قضينا في سفرة عدة أسابيع ، ومررنا على ثمان عشرة مدينة وكثير من القرى والضياع . وفي اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر وصلنا إلى قصبة الإمبراطورية ، واسمها « أم القرى » ، وهم يستقونها دائما بأنها « فخر بلاد العالم » . وما وصلنا إلى تلك القصبة حتى اكترى السيد جناحا كبيرا في أحسن شوارع المدينة ، وأرسل دعاته يريون على الناس أثناء الترابيع والمندحشات التي سافحهم بها .

وكان السيد يتوسل أمام الجمهور في قناه كبير ، طوله أربع مائة قدم وعرضه ثلاثمائة قدم ، وفي وسطه مائدة قطرها ستون قدما ، يكتنفها سجاج متين ليحول بيني وبين السوط . وكنت أمثل دوري - في كل

يوم - عشر مرات ، والجمهور شديد الإعجاب بي . وكنت حينئذ قد تعلمت ألفاظا كثيرة من لغة هذه البلاد ، وأصبحت قادرا على الكلام مع أهلها بسهولة ؛ لأنني كنت دائم الانتباه والتلق لكل ما يطرئ سمي من أحاديثهم . وكانت العاضنة الصغيرة داتبة العناية بي . فلا تترك فرصة في أوقات فراغي دون أن تملأني فيها بحروف الهجاء وما إليها ، حتى أصبحت - بفضل عنايتها وتمهدها - قادرا على قراءة كتبهم الأولية وفهمها . وكانت تدرس لي في البيت وفي القنطرة وفي كل مكان نحل فيه ، وتعلمني القراءة في كتيب صغير يزيد حجمه على حجم المصور الجفراقي الكبير الذي يتداوله التلامذة في مدارسنا ، وتبذل قصارى جهدها في تعليمي الحروف وتركيب الكلمات ، مبدرة منها إلى العمل القصير ، فالطويل ، كما كانت تفهمني ما في ما أقرأ ؛ حتى وصلت - في زمن يسير - إلى درجة جديرة بالفطنة والإعجاب .

ووصفَ لها صَالةَ جِسى، وحُسنَ أدبى، ودَمانةَ خُلُقٍ، وذَكَائى السَّادِ؛
فلم تُطوِّقْ جلالَها صبراً، وأرسلتْ - من قوَرِها - تَسْتَدْعِينِ إليها
تَحْتَقِيقَ صِدْقِ ما سَمِعْتَهُ عَنِ منْ أُنْباةٍ مُعْجِبةٍ. وقد ابْتَهَجَتْ رَأْسُ الْمَلِكَةِ
وحاشيتُها ابْتِهَاجاً عَظِيماً، حينَ تَحَقَّقَتْ صِدْقَ ما حَدَّثَها به، وأُظْهِرَتْ
عَظَمَها على وإِعْجابِها بِه:



فَجَنَوَتْ عَلَى رُكْبَتَيْ
خَارِجاً إِلَيْهَا أَنْ تَشْرُقَنِي
يَلْشَمُ قَدَمَيْهَا الْمَلِكِيَّةُ؛ قَدَمَتْ إِلَى خِصْرَها - مُتَلَفِّةً بِاسِمةٍ -
فَأَمْسَكَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ، وَلَتَمَتْ بَنَانِها شاكِراً.

وقد وَجَّهَتْ إِلَى اسْتِئْثَالةِ عَامَّةٍ عَنِ بِلادى، فَأَجَبَتْ عَنِها إِجابةً مُوجِزةً
واضِحةً، على قَدَرِ ما اسْتَطَاعَ أَنْ أُعْجِرَ بَلُغَتِها. ثم قالت لى مَبْتَسِمةً:

«أَيَسُرُّكَ أَنْ تَعِيشَ مَهْناً فِي هَذَا الْقَصْرِ؟»

فانْحَنَيْتْ أَمَامَها شاكِراً، وَأَجَبَتْها ضارِعاً:

«لستُ - يا مَوْلَايَ - إِلَّا عَبْدٌ رَقِيقٌ لِهَذَا السَّيِّدِ، فَهُوَ مَالِكٌ رَقِيقٌ،

١ - فِي الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ

شَدَّ مَا أَجْهَدَنِي مَا كَابَدْتُهُ مِنْ جُهودٍ مُضَيِّبَةٍ، وَمَتاعِبٍ شَدِيدَةٍ؛ قَدْ
كُنْتُ دَائِبَ الْعَمَلِ فِي تَمْثِيلِ أَذْوَارِ - كُلِّ يَوْمٍ - حَتَّى سَاعَتِ صَبْحِي،
وَدَبَّ إِلَيَّ دَيْبُ الضَّعْفِ، وَهَزَلَ جِسى. وَكَانَ السَّيِّدُ شَرِها طَمَاحاً بِفَرِيهِ
الْكُتُبِ، وَيُنْسِيهِ مَا يَجْنِيهِ مِنَ الْأَرْبَاجِ الطَّائِلَةِ كُلِّ مَعْنَى مِنَ مَعَانِي
الطَّيْفِ وَالْوَاجِبِ الْإِنْسَانِي. وَقَدْ قَدَّمْتُ شَهِيَّةَ الْأَكْلِ قَدَاناً تَأَمُّناً،
وَأَصْبَحْتُ جِلْدًا عَلَى عَظْمٍ. وَرَأَى السَّيِّدُ أَنَّنِي مُشْرِفٌ عَلَى التَّلَفِ، فَجَلَسَ
يُفَكِّرُ فِي وَسِيلَةِ يَسْلُكِها لِلانْتِزاعِ بِي مِنْ أَقْرَبِ طَرِيقٍ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ.

وَإِنَّهُ لَغَارِقٌ فِي تَفْكِيرِهِ إِذَا جَاءَهُ أَحَدُ الْأَمْراءِ يَسْتَدْعِيهِ لِلذَّهَابِ مَعِي، مِنْ
قَوَرِهِ، إِلَى الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ لِنَسْلَةِ الْمَلِكَةِ وحاشيتها. وَكَانَتْ أُنَا فِي قَدْ
ذَاعَتْ فِي أَزْجاءِ التَّمَلُّكِ كُلِّها، وَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ سَيِّدَاتِ الْعَاشِيَةِ فَأَعْجَبَنِي بِي
إِعْجاباً شَدِيداً، وَقَصَصَنَ عَلَيَّ جِلالَةَ التَّمَلُّكِ ما رَأَيْتُهُ مِنَ التَّمْدِشَاتِ،

يَصْرَفُ في أَمْرِي كَيْفَ يَشَاءُ. أَمَا أَنَا، قُلُوْا، كَانَ أَرَى بِيَدِي لَرَأَيْتُ السَّعَادَةَ كُلَّهَا فِي أَنْ أَهَبَ جَلَالَتِكَ الْمُلُوكِيَّةَ حَيَاتِي، وَأَنْ أَقْصُرَ خِدْمَتِي عَلَى الْقَصْرِ الْكَرِيمِ !

فَالْتَقَتَتْ إِلَى السَّيِّدِ نَسَالَهُ :

« هَلْ قَبِلُ أَنْ تَبِيعَنِيه ؟ »

وَلَمْ يَكُنْ أَشْعَى إِلَى نَفْسِهِ مِنْ هَذَا ؛ فَقَدْ دَخَلَ فِي رُوعِهِ أَنِّي هَالِكٌ - قَبْلَ أَنْ أَتِمَّ الشَّهْرَ - فَرَأَى الْقُرْمَةَ سَانِحَةً لِلْكُشْبِ، وَعَرَضَ عَلَى جَلَالَتِهَا أَنْ تَفْكَرَ بِنِي بِالْفِ دِينَارٍ، فَتَقْدِنَهُ الثَّمَنَ مِنْ قُوْرِهَا. قَلْتُ لِجَلَالَتِهَا ضَارِعًا :

« مَا أَجْدَرُ مَوْلَانِي أَنْ أَضَيِّفَ - إِلَى هَذَا الْفَضْلِ الَّذِي طَوَّقَتْ بِهِ جِيدَ عَنِيْدِهَا - فَضْلًا آخَرَ، فَضَّلْتُ صَدِيقِي الْحَاضِنَةَ الصَّغِيرَةَ - الَّتِي عَطَلْتُ عَلَى وَصِيَّتِي بِأَمْرِي - خَادِمَةً لِجَلَالَتِهَا، لَتَكُونَ رَفِيقَةً لِي ؛ فَقَدْ أَقْنَعَنِي الْأَيَّامُ بِأَنَّهَا نِعَمُ الْبُرْشِدَةِ الْأَمِينَةُ . »

فَأَجَابَنِي جَلَالَةُ الْمَلِكِ إِلَى طِلْبَتِي فِي الْحَالِ، وَفَرَحَ الزَّارِعُ هَذَا الْقُوْرَ، وَاشْتَاقَ قَلْبُهُ سُورًا وَغِبْطَةً ؛ إِذْ أَصْبَحَتْ ابْنَتُهُ فِي حَاسِيَةِ الْمَلِكِ، كَمَا تَطَلَّهَتْ أَسَارِيرُ الْحَاضِنَةِ بِشَرًّا وَسُورًا .

ثُمَّ ذَهَبَ السَّيِّدُ إِلَى سَبِيلِهِ، بَعْدَ أَنْ حَيَّانِي مَبْنِيًّا، وَقَالَ لِي :

« أَشْتَوِدُّكَ أَفْهَ، وَأَهْنُوكَ هَذَا الْقُوْرَ الْعَظِيمَ، وَأَتَسَيَّ لَكَ السَّعَادَةَ النَّائِمَةَ ! »

فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ تَحِيَّتَهُ - فِي اِمْتِنَاعٍ وَفُتُوْرٍ - وَشَكَرْتُ لَهُ أَمَانِيَّتِي لِي .

٢ - حُطْبَةُ « جَلْفَر »

وَلَمْ يَخَفْ عَلَى جَلَالَةِ الْمَلِكِ مَا بَدَأَ عَلَى أَسَارِيرِي مِنْ أَمَارَاتِ اِلْمِتِنَاعِضِ وَالْفُتُوْرِ - حِينَ حَيِّتُ ذَلِكَ السَّيِّدَ - فَسَأَلْتَنِي عَنِ السَّرِّ فِي ذَلِكَ ؛ فَلَمْ أَكْتُمْهَا شَيْئًا مِنْ حَقِيقَةِ مَا حَدَثَ، وَقَصَصْتُ عَلَيْهَا قِصَّتِي كُلَّهَا، ثُمَّ خَتَمْتُهَا بِقَوْلِي :

« إِنْ كُلُّ مَا أَشْكُرُهُ - لِهَذَا السَّيِّدِ - أَنَّهُ تَجَاوَزَ عَنْ قَتْلِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ الصَّغِيرِ الْبَرِّيِّ، الَّذِي رَأَى مُصَادَفَةً فِي حَقْلِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ فِي قُدْرَتِهِ - حِينَئِذٍ - أَنْ يَسْحَقَنِي بِقَدَمِهِ سَحْقًا، وَإِنِّي لَنْ أَنْبِي لَهُ هَذَا الصَّنِيعَ الشُّكُورَ . »

وَأَحْسَبُنِي قَدْ رَدَّدْتُهُ إِلَيْهِ مُضَاعَفًا ؛ فَقَدْ جَنَى بِي أَرِيحًا طَائِلَةً. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِهَا طَوْلَ عَمْرِهِ . وَكَانَتْ خَاتِمَتِي مَعَهُ أَنْ بَاعَنِي لِجَلَالَتِكَ بِالْفِ دِينَارٍ .

على أنى أقیم منه جَسَمَهُ وَجَرِيَهُ وراءَ المالِ ، دون أن تأخذَه فى أمرى
رحمةً أو شفقةً ؛ فقد أفسَدَ صِحَّتِي ، وأنسَكَرَ صُحَّتِي فى سبيلِ المالِ ، وكاد
يُهْلِكُنِي لولا لطفَ اللَّهِ بِي ؛ إذ قَبِضَ لِي جَلالَتِكَ ، فأَقْدَتَ حَيَاتِي بِدُونِ
أَشْرَفْتُ عَلَى التَّلَفِ . ولولا أَنَّهُ كانَ شديدَ النِّقَمَةِ بَأَنِّ حَيَاتِي وَشَيْئِكَ ، لما
بَاعَنِي لِجَلالَتِكَ بِهَذَا الثَّمَنِ القَلِيلِ ...

على أنى لن أخشى شيئاً بعدَ اليومِ . فَحَسْبِي أَنى أَصْبَحْتُ فى كَيْفِ
مَلِكَةٍ عَظِيمَةٍ مِثْلِكَ ، تُعَدُّ - بِحَقِّ - آيَةَ الكَرَمِ ، وَبَهْجَةَ الدُّنْيَا ، وَفَخْرَ
العَالَمِ . وقد بدأتُ أَحِسُّ - مِنْهُ هَذِهِ الأَحْظَرَةَ - أَنَّ زَمَنَ النُّحُوسِ وَالشَّقَاءِ
قد وَلَّى ، وَأَعْتَبَهُ زَمَنُ السَّادَةِ وَالرِّخَاءِ . وَإِنى لَأَشْمُرُ أَنَّ قُوَاى تَتَجَدَّدُ
بِفَضْلِ هَذِهِ الرِّعَايَةِ السَّامِيَةِ .

وقد أَلْقَيْتُ هَذِهِ الخُطْبَةَ أَمَامَ جَلالَتِهَا - وَأَنَا وَاثِقٌ مِنْ أَنى وَقَعْتُ فى
كثيرٍ مِنَ القَلَطِ النُّحُوسِ ، وَالغَطَطِ اللُّغُوبِ - وَلَكِنْ جَلالَتِهَا أَدْرَكَتْ حَدائِثَ
عَهْدِي بِتِلْكَ اللُّغَةِ ، فَجَاوَزَتْ عَنِ كُلِّ مَا وَقَعْتُ فِيهِ مِنْ هَفَوَاتٍ ، وَأُعْجِبْتُ

بِدَكَائِي ، وَدَهَشْتُ لِمَا سَمِعْتُهُ مِنِّي . وَلَمْ يَكُنْ يَدُورُ بِخَلْوِهَا أَنَّ تَجِدَ هَذَا
الْعَقْلَ وَالذِّكَاةَ فى مِثْلِ هَذَا الحَيَوَانِ الصَّغِيرِ الَّذِى يُخَاطِبُهَا .

٣ - بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ



ومضتُ بى - مِنْ
قَوَرِهَا - إِلَى جَنَاحِ جَلالَةِ
الْمَلِكِ ، وكانَ قد عادَ إِلَى
القَصْرِ . وما اسْتَقَرَّ فى
حُجْرَتِهِ الخاصَّةِ حَتَّى
جاءَهُ الْمَلِكُ ، فَحَبِثَهُ
- مُتَلَطِّفَةً - فَرَدَّ عَلَيْهَا
النَّجِيَّةَ بِأَنْسَامِ . وكانَ
تِلْكَ هَذِهِ البلادِ مِثَالاً
لِلجِدِّ وَالْحَزَمِ وَالنَّشَاطِ .
وما أَلْقَى عَلَى نَظَرَةٍ عاجِلَةٍ
حَتَّى قالَ لِلْمَلِكَةِ ، وَلَمْ
يَكُنْ قد رَأى وَشَيْئاً :

« ماذا أَعْجَبَكَ مِنْ هَذِهِ الْخَشَرَةِ ؟ »

فوسعتني تلك المِلِكَةُ الْحَصِيْفَةُ عَلَى مِجْبَرَةٍ جَلَالِهِ . وَطَلَبْتُ إِلَيْ أَنْ
أُجِيبَ جَلَالََةَ الْمَلِكِ عَنْ سُؤَالِهِ ، وَأَخْبَرَهُ بِأَسْمِي .
فَأَوْجَزَتْ لِحَالَتِهِ خَبْرِي . وَلَمْ تَسْتَطِعِ الْحَاضِرَةُ أَنْ تَتَّقِيَ بَعِيدَةً عَنِّي ؛
فَأَسْتَأْذَنْتُ فِي الدُّخُولِ ، ثُمَّ قَصَّصْتُ عَلَى جَلَالَتِهِ كَيْفَ وَجَدَنِي أَوْهَا فِي حَقْلِهِ ،
وَسَرَدَتُ قِصَّتِي كُلَّهَا . وَكَانَ ذَلِكَ الْمَلِكُ أَعْلَمَ رَجُلٍ رَأَيْتُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَقَدْ
تَوَفَّرَ عَلَى دَرَسِ الْفَلَسَفَةِ وَتَخَصُّصِ الْعُلُومِ الْبَاطِنِيَّاتِ . فَلَمَّا رَأَى وَجْهِي
وَمَشِيتِي ، خَيَّلَ إِلَيَّ أَنِّي رُبَّمَا كُنْتُ أَلَّةً صِنَاعِيَّةً كَأَلَّةِ الْآلِهِ الَّتِي تُدْرِكُ بِنَفْسِهَا
سُغُودَ الشَّوَاءِ ، أَوْ كَالسَّاعَةِ الَّتِي اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْتَرِعَهَا فَتُيِّ مَاهِرٌ . وَلَكِنَّهُ
بَعْدَ أَنْ حَدَّثَنِي وَتَيَّيْنِ بَرَبَاتِ صَوْتِي ، وَحَسَنَ جَوَابِي ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ
يَكْتُمَ دَهْشَتَهُ وَإِعْجَابَهُ .

٤ - أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ

فَأَمَرَ الْمَلِكُ - مِنْ فَوْرِهِ - بِاسْتِئْذَانِ ثَلَاثَةِ مِنْ أَسَاطِينِ الْعُلَمَاءِ ، كَانُوا
- حِينَئِذٍ - مُيُوقَا فِي الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ ، وَكَانُوا يَتَفَضَّلُونَ فِيهِ أَشْبُوعًا مِنْ كُلِّ

عَامٍ ، تَبَيَّنَا لَتَضَالِيدِ هَذِهِ الْبِلَادِ . وَبَعْدَ أَنْ أُنْمُوَا النَّظَرَ وَأُنْمَتُوا الْفِكْرَ ،
وَأَطَالُوا التَّمَثُّلَ وَالْفَحْصَ ، تَبَيَّنَتْ أَرَاؤُهُمْ فِي أَمْرِي . ثُمَّ أَجْمَعُوا رَأْيَهُمْ - بَعْدَ
مُتَنَاقِشَةٍ طَوِيلَةٍ - عَلَى أَنِّي قُلْتُهُ مِنْ قَلْتَاتِ الطَّبِيعَةِ ، لِأَنِّي لَمْ أَخْلُقْ عَلَى
حَسَبِ الْقَوَائِمِ الطَّبِيعِيَّةِ الْمَأْلُوفَةِ ، وَلَئِنْ الطَّبِيعَةُ قَدْ سَلَبَتْنِي - فِيمَا زَعَمُوا -
كُلَّ مَوْهَلَاتِ الْحَيَاةِ وَأَدَوَاتِ الدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِي ، وَحَرَمَتْنِي الْقُوَّةَ وَالنَّشَاطَ ؛
فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَسْتَلْقَ شَجَرَةً مِنْ أَشْجَارِهِمْ ، أَوْ أَخْفِرَ الْأَرْضَ ، فَاتَّخِذْ
فِيهَا جُحْرًا آوِي إِلَيْهِ كَمَا تَعْمَلُ الْأَرَانِبُ مَثَلًا . وَقَدْ فَحَصُوا عَنْ أَسْنَانِي فَحَصًّا
دَقِيقًا ، فَاقْتَضَعُوا بِأَنِّي حَيَوَانٌ مَغْرَسٌ مِنْ أَكَلَةِ الْأَحْمَرِ . وَذَهَبَ أَحَدُهُمْ إِلَى
أَنِّي جَنِينٌ لَمْ أَكْتَمِلْ فِي بَطْنِ أُمِّي ، وَلَكِنْ رَفِيقِيهِ أَنْكَرَا عَلَيْهِ هَذَا
الزَّغَمَ ، لِأَنِّ أَغْضَانِي كُلَّهَا

كَامِلَةٌ فِي نَوْعِهَا - بِرُغْمِ

صَّالِحَاتِهَا - وَلِأَنِّي قَدْ عِشْتُ

عِدَّةَ سِنِينَ . حَتَّى أَكْتَمَلْتُ

دُجُوكَی وَالتَّحْنِثُ . وَقَدْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَرَوْا شَعْرَ لِحْنِي بِمِجْهَرٍ لِدِقَّتِهِ . وَلَمْ
يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَتَعَبَّرُوا بِقَرَمًا ؛ لِأَنَّ لَدَيْمِ الْمَلِكَةِ - وَهُوَ أَصْفَرُ قَرَمٍ وَجِدَ



في تلك المملكة - كان ير في طوله على ثلاثين قدماً .

وطالت مناقشهم ، واشتد جدلهم ، ثم أظفوا - بعد ذلك - على أنى
لست إلا مخلوقاً شاذاً من النوع الذى يطلق عليه الفلاسفة اسم «مُدَاعَبَاتِ
الطبيعة» أو «فَنَاتِ الزَّمَنِ» . وهو تصويرٌ بليغٌ إليه أسارتُ الفلسفة
الحديثة الذين يُعجزهم تفهم أسرار الكون ، ودقائق الغيب ، وغرائب
الطبيعة ؛ فلا يجدون وسيلةً ليحل كل غامضٍ إلا إذا لجأوا إلى هذه
النظرية السهلة !

...

وما انتبهوا من قرارٍ هذا ، حتى اتفقت إلى التلكير ، وقلتُ
ليخلاتيه : « إنني أت من بلاد تعوى عِدَّةَ ملايين من الأنبيى - ذكورا
وإناثا - في مثل حجبى ، وإن أشجار تلك البلاد وحيوانها ونباتها
ومساكنها تناسب أحوالنا الصغيرة . وثمة تنوافر لى أسباب الدفاع عن
نفسى ، ويسهل على أن أحصل على قوتى وحاجاتى ، كما تحصلون عليه في
بلادكم المناسبة لأحجامكم الهائلة . »

وما سمع الفلاسفة هذا الحواب ، حتى علت شفاههم ابتسامات

البشرية والإردراء ، وقالوا لى متكبين :

« قد أحسن الزارع تلقينك هذه الدروس ! »

وكان الملك - كما قلت - ذكى القلب ، واسع الإطلاع ؛ فلم يستعبد
ما قلته . فصرفت علماءه ، وأمر باستدعاء الزارع - ولم يكن قد غادر
المدينة ليحسن الحظ - وسأله جلالته على انفراد ، ثم واجهته بى وبأنيته
الصغيرة ؛ فظهر له صدق ما قلته له . فصرف الزارع ، وأوصى بى العاضنة
خبراً ، وترك لها العناية بأمرى ، بعد أن رأى عطفها على وتلقها بى .

٥ - عناية الملك

وقد استندت الملك تجارها الخاص - وكان مشهوراً بصنع دقائق
التجارة - وأمرته بعمل علية صغيرة فصلح مكاناً لنومى وفق النموذج
الذى قدمنه أنا والعاضنة . وكان تجاراً ماهراً دقيقاً ذكياً ؛ فلم تمر عليه
ثلاثة أسابيع حتى أتم صنع العلية . وكانت مساحتها ست عشرة قدماً
مربعة ، وارتفاعها اثنتى عشرة قدماً ، ولها باب ونوافذ ، وهى تحوى
حجرتين . وبعد أيام قليلة جاء لى بكرهين صغيرين من مادة نفس العاج ،

وأخضروا إلى مائتين ، وخزانة ملابس صنعها عاملٌ مُتَخَصِّصٌ لِصُنْعِ
دَقَائِقِ الطَّرْفِ الفَنِيِّ . وأعدت لي جلالةُ المَلِكِ أرقَّ الأتوابِ
الْحَرِيرِيَّةِ ، لِأَخْتَارِ مِنْهَا ما يُلائِمُنِي .

وكانت جلالتُها تَأْسُرُ إلى ، وتُطَرِّبُ بِحَدِيثِي ، ولا تُصَبِّرُ على مُفَارَقَتِي .
ولا تأكلُ إلا إذا أَكَلْتُ بِجَانِبِهَا . وقد أعدت لي مائدةً صغيرةً أضُمُّها على
المائدةِ الكبيرة ، وأحضرت لي جانبها كُرْسِيًّا صغيرًا أَجْلِسُ عليه . وكانتِ
الحاضِنَةُ تَجْلِسُ دائِماً بالقربِ مِنِّي لِتَلْبِيَةِ كُلِّ ما أطلبُ ، ولا تَكَادُ تُفَارِقُنِي
عَنِ الْعِيَاةِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ .

٦ - حِوَارُ الْمَلِكِ

وفي ذاتِ يومٍ كان المَلِكُ يَتَفَهَّدُنِي معنا ، فظلَّ يُجادِنُنِي ، وهو مُجِيبٌ
بِحَدِيثِي . وقد سألتني عن عاداتِ بلادِي ، وأَخْلَاقِ أَهْلِهَا ، وَدِينِهِمْ وقَوَانِينِهِمْ ،
وَحُكُومَتِهِمْ وآدَابِ لَغَتِهِمْ ؛ فَأَجَبْتُهُ عن كُلِّ ما سألَ بِقَدْرِ ما سَأَعْتَنِي اللَّهُ .
وكان المَلِكُ طَلَعَةً ، ذَائِبَ البَحْثِ ، دَقِيقَ المُلَاحَظَةِ ، قَوِيَّ الْحُجَّةِ ؛
فظلَّ يَهْكُرُ في شَأْنِي وَأَقْوَالي مِلًّا . وقد اشتدَّ عَجَبُهُ حينَ عَلِمَ أَنَّ في بلادِنَا

أَحْزَابًا مُتَنَافِرَةً مُتَنَاحِرَةً ، وَأَنَّ لِكُلِّ حِزْبٍ مُؤَيَّدِينَ وَمُعَارِضِينَ . فَالْتَمَسْتُ
الْمَلِكَ إلى وَزِيرِهِ ، وكانَ واقفاً خَلْفَهُ وفي يَدِهِ عَصَا بَيْضَاءُ ، كَانَتْهَا
حُلَّةٌ لَهَا - سَارِيَّةٌ سَفِينَةٌ شِرَاعِيَّةٌ كَبِيرَةٌ . وقالَ له المَلِكُ :

... أليسَ مِنَ المُمْكَنِ الخَرْجُ أَنْ تَكُونَ العَظَمَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ تَأْهِقَةً إلى هَذَا
الْجَدِّ ؟ وَأَيُّ قِيَمَةٍ لِلْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِذَا شَارَكَتُهُ تِلْكَ الْحَشَرَاتُ
الصَّغِيرَةُ فِي كُلِّ خَصَائِصِهِ وَمَزَامِيرِهِ ؟ وَأَيُّ فَضْلٍ لَنَا ما دَامَتْ هَذِهِ الْحَشَرَاتُ
تُمَانِلُنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ : لَمْ أَطْلُعْ وَأَحْزَابٌ ، وَمِيزَاتٌ وَزِينَاتٌ ، وَأَفْرَاحٌ
وَأَتْرَاحٌ ، يَصْنَعُونَ مِنْ فَضَلَاتِ الْخَرْقِ أَقْوَابًا يَرْتَدُّونَهَا ، وَيَأْوُونَ إلى قُيُوبِ
يُسُومُونَهَا مَنَازِلَ وَنُصُورًا ، وَتَتَخَنُّونَ لَهُمْ أَتْبَاعًا وَخَدَمًا ، وَيُلَقَّبُونَ أَنْفُسَهُمْ
بِشَيْءٍ الْأَقَابِ وَالشُّعُوبِ ، وَيَكُونُ لَهُمْ - كَالنَّاسِ - فِي هَذِهِ الدُّنْيَا آرَابٌ
وَمِشَاغِلٌ وَأُمَامِيٌّ ، وَيُجِبُّونَ وَيَكْرَهُونَ ، وَيَلْجَأُونَ إلى ضُرُوبِ الْخِدَاعِ
وَالْمَكْرِ وَالْخُصُومَةِ : فَلَا تَنْتَازِعُهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَرْبَابِنَا وَنَقَاتِينَا عَلَى السَّوَاءِ ؟
هَكَذَا شَاءَ جَلَالَةُ الْمَلِكِ أَنْ يُحَقِّرَ أَبْنَاءَ جِنْسِي ، وَأَنْ يُزَيِّرَ بَغْضُونَهُمْ
وَأَقَابَهُمْ وَفَلَسَتِهِمْ ، وَأَنْ تَدْفَعَهُ فِلَسْفَتُهُ إِلَى النُّصْرِ مِنْهُمْ ، وَامْتِنَانِ شَأْنِهِمْ
لِضَلَالَةِ أَجْسَادِهِمْ !

بالنضب ، وأرسلت - من فورها - تستدعي ذلك القرم . فلما حضر
أمرت بضربه بالسياط ؛ فطَلُّوا يضربونه ضرباً موجعاً ، حتى شقي غيلجى منه ،
وأدركت - بذلك الإيذاء - ثأري الذي كنت عاجزاً عن الأخذ به !

٨ - في أنبوب عظمى

على أن هذا الحادث المشؤم - حايث الفرق - قد انتهى لحسن
حظي بسلام ، فلم أخسر فيه إلا ثوبى الجديد .

وقد طردت تلك هذا القرم الشرير من خدمتها ، وتركته لإحدى
وصيفاتها ؛ فاسترحت من مضايقته وخشيته منذ ذلك اليوم .

ولم تكن هذه أول مرّة أساء إلى فيها ذلك القرم ؛ فقد طالما صابني
بإساءاته المتكررة . ولست أنسى ما فعله ذات يوم ، إذ ترّس بي حتى
اتنهي التلك من عذابه ، ثم غافلني ذلك الخبيث وأمسك بي ، فضم
ساقى بإصبعيه ، وأدخلني في أنبوب عظمى - بعد أن استلّ نعاها -
فقضت فيها إلى رقتي .

ثم وضع تلك المنظمة على المائدة ، ودّهب إلى سبيله ، ولبّثت في ذلك

٧ - القرم الخبيث

صباح الزّمن ، ولم يُمكنك على هذا الصّفء إلا قرم خبيث قد اختارته
السلكة لئلا يدمها ، وهو أصغر قامة من كل مخلوق في هذه البلاد . وما
رأى ذلك القرم الخبيث أن في الدنيا إنساناً أضال منه ، حتى تملكه الزهو
والفرود والخيلة ؛ فظنّ يعبث بي - كلّما رآني - ولا يترك فرصة
يلقاني فيها دون أن يهكم بي ، ويسخر مني ، حتى عكر على كل صغور .
ولم أكن أجد وسيلة إلى الانتقام منه إلا أن أدعوه بقلب الشقيق ، !

وما أنس لا أنس يوماً مشؤماً مرّ بي مع هذا القرم الخبيث ومن
تفدى . ولم أكن أنكر في شيء حينئذ ، فرأى ذلك القرم أن الفرصة
سائغة للعبث بي ؛ فأنسكني من وسلى ، ورفنى يده ، ثم ألقى بي في صحفة
متلوة كتباً ، وفرّ هارباً ؛ فزفرت في اللّبن إلى أذني ، ولولا أنني أخين
السباحة لفرقت فيها وكنت من الهالكين . وكانت الحاضنة الصغيرة
حينئذ في آخر القاعة - ليحسني حظي - فأسرعت إلى وأخذتني من الفرق .
وما عشت تلك هذا الحادث المفزع حتى ذهلت ، وامتلات نفسها

الأنثوبِ يَسْعُ دَقَاتِقُ - وأنا في أخرج مَارِق - وَخَلْتُ مِنْ حَقَارَتِي ،
فلم أَثَا أَن أَصِيحْ حَتَّى لَا أَنْبَهُ مَنْ فِي الْبَيْتِ إِلَى مَكَانِي الْمَرْزِي .

وقَدْ كَانَ مِنْ حُسْنِ
حَطَى أَنْ * الْمُلُوكَ
لَا يَأْكُلُونَ طَعَامَهُمْ
وَهُوَ سَائِغٌ شَدِيدُ
الْحَرَارَةِ ؛ فَلَمْ تَحْتَرِقْ
سَاقَايَ .



وَمَا فَطَنَ الْحَاضِرُونَ

إِلَى مَكَانِي حَتَّى أَغْرَقُوا فِي الضَّجْجِ ، ثُمَّ أَخْرَجُونِي مِنَ أَنْثُوبِ تِلْكَ
الْمَطْفَةِ دُونَ أَنْ يَسْنِي سَوْءُ . وَقَدْ هَمُّوا بِمُحَاقَبَةِ ذَلِكَ الْقَرْمَرِ عَلَى
إِسَاتِهِ ؛ فَتَشَفَّعْتُ فِيهِ - إِيثَاءَ عَلَيْهِ ، وَاسْتِصْفَاءَ لِنَفْسِهِ - حَتَّى عَمُوا عَنْهُ .

٩ - مُكَافَأَةُ الْحَشَرَاتِ

وَكَانَتْ التَّلِيكَةُ - فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ - تَهْرَأُ فِي ، وَتَضْحَكُ مِنْ

عَالِي ، وَتَسْتَحِرُّ مِنْ جُنِي ، وَكَثِيرًا مَا سَأَلْتَنِي مُنْعَبَةً :

« تَرَى هَلْ يَمَّا تِلْكَ أَهْنَاءَ جِلْدَتِكَ فِي خَوْفِكَ وَجُنْيِكَ ؟ وَهَلْ
يَتَوَعَّبُونَ مِنْ طَيْنِ الدُّبَابِ ، وَلَذَعَاتِهِ الْخَفِيفَةِ كَمَا تَتَزَيَّجُ أَنْتَ ؟ »

وَلَا أَكْتُمُ
أَقَارِيَّ أَنْ دُبَابَ هَذِهِ
الْبِلَادِ مَا كَانَ يَدْعُنِي
لِخُفَّةٍ فِي رَاحَةِ
وَاطِئَتَانِ . فَهُوَ
- لِئَوْهٍ حَطَى -

فِي حَجْمِ الْقُبُورِ فِي
بِلَادِنَا ، وَكَانَ يَهَافُ
عَلَى طَلَابِي ، وَيُفْرِغُنِي

طَيْنَتُهُ ، فَلَا يَهْتَأُ لِي طَعَامٌ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ . وَرُبَّمَا لَذَعَنِي فِي أَنْتَى لَذَعَةٍ
مُوجِعَةٍ . وَكَانَتْ لَهُ رَاحَةٌ كَرِيمَةٌ ، فَكُنْتُ أَحْسَنَ رِغْمَةٍ خَوْفٍ
وَفَرَعٍ كُلَّمَا اقْتَرَبَتْ مِنِّي تِلْكَ الْحَشَرَاتُ الْمُؤَذِرَةُ .



وكاننا فهم ذلك القزم النحيت خوفاً من تلك الحشرات ، فكان
يحلوه أن ينهر كل فرصة سانحة ، ليخفي بها ، ويصحبك
الأميرات مئى : قتيلاً قضه يده بجملته من الذباب ، ثم يطلها على .
ولم يكن لى من حيلة فى دفع هذا الوباء إلا أن ألجأ إلى مدمي ،
فأحارب ذلك الذباب الكبير ، وأقطع جسمة وأجنته إرباً إرباً !

وكانت الأميرات يجمعن هذه اللبافه التى امتزت بها فى صيد
الحشرات . ولست أنسى ما حدث لى - داحاح - قد وضعت الحاضنة
عنتى على النافذه - وأنا فى داخلها - لأستنشق الهواء النقي ، وما فتئت
أخذى نافذتى وجلت إلى ما يدنى لا كل قطورى - وكان قطعة من
القطير - حتى أقبلت اليعاسيب والرنابير ، ودخلت حفرتى ، ومألت
أنحاءها بطيئها المزعج ، وظلت تنهات على طامى وتنتبه انشبابا .
وطار بضها حول رأسى ، فتشجعت ، وقئت أطايرها فى الهواء ، فقتل منها
أربعة ، وهربت بقيتها . فلما انتصرت عليها . أغلقت النافذه .

وقد كان السموب فى حچم الحبل ، وكان طول جسمة اللاسه اصعبا ،
وقد استهظت ببعضها ليكون عتري أنرا من ذكريات هذه البلاد .

الفصل الرابع

١ - رُبْدِ نَجاح

لعل القارى قد اشتاق إلى تعرف هذه المملكة وأوصافها ، كما عرف
- من قبل - أوصاف إثيراطوريه « ليليوت » . وليس فى قدرنى أن
أصف هذه المملكة الصيحه الأجزاء ، المتمرمة الأطراف ، وصفا
جسما : فلا اجتري بوصفها وصفا عاجلا ، على قدر ما عرفه منها . ولا
أشكم القارى أنى أحييت هذه البلاد ، وفنت بها أشد الفتنه .



تقع هذه المملكة
فى رُفْعَةٍ فسيحة من
الكرة الأرضية ، طولها
ثلاثة آلاف ميل ، وعرضها ألفان ومئى ميل . ولست أشك فى أن
علماء الجغرافيه وهؤن إذ يقررون - جازمين - أن ليس بين « ألبان »
وه « كلفورنيا » إلا بحر . ولقد طالما دار بخللى أن فى تلك الأنحاء قارة

كبيرة . ولوترك الأمر إلى لَأَوْصَيْتُ بِتَصْوِيبِ الْمُسَوِّرَاتِ الْجُغَرِاقَةِ ،
وتلاني هذا النقص فيها ، وصم هذه البلاد الفسيحة إلى الأقسام الشمالية
الغربية في « أمريكا » . وإني مُتَعِدُّ لِمَا وَتَوْنُهُمْ فِي ذَلِكَ - إِذَا شَاءَ -
وَالْإِفْضَاءَ إِلَيْهِمْ بِمَا أَعْلَمُهُ عَنْ هَذِهِ الْبِلَادِ .

٢ - وَصْفُ « بَرُونَج »

وليس هذه التملككة إلا شبه جزيرة كبيرة ، تنتهي شمالاً بِسِلْطَةِ
جبال يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثين ميلاً تقريباً ، ولا سبيل إلى الدنو منها
لكثرة ما في ذراها من البراكين . وليس في علماء الجغرافية عالم واحد
يعرف ما وراء هذه الجبال الشامخة من السكان ، وهل هي مأهولة بأبناء
آدم أو غير مأهولة ؟

وليس في هذه التملككة - عَلَى سَعَتِهَا - مَرَقًا واحدٌ تَرَسُو عَلَيْهِ
الشُّعْنُ . وَإِنَّكَ لَتَجِدُ - عِنْدَ مَصَابِ الْأَنْهَارِ كُلِّهَا - كَثِيرًا مِنَ الصُّخُورِ
الْمُرْتَفِعَةِ الْوُجْهِ ، وَتَرَى الْبَحْرَ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ كَثِيرَ الْإِشْطِرَابِ ، حَتَّى
لَيَسْتَعْدُّ عَلَى أَى إِنْسَانٍ أَوْ أَيْهَ سَبَبِ الْإِقْتِرَابِ مِنْهَا . وَقَدْ كَانَ هَذَا سَبَبًا

لِغِي عُرْلَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَنِ الْعَالَمِ ، وَاقْطَاعِ اتِّصَالَاتِ التِّجَارِيَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا
وَبَيْنَ بَقِيَّةِ سُكَّانِ الدُّنْيَا .

٣ - سَمَكُ « بَرُونَج »

وَفِي هَذِهِ الْبِلَادِ أَنْهَارٌ كَبِيرَةٌ غَاصَّةٌ بِأَفْخَرِ أَنْوَاعِ السَّمَكِ . وَقَلَّمَا رَأَى
أَحَدًا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ يَصِيدُ السَّمَكَ مِنَ الْمَحِيطِ ، لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ - فِي
حُجْمِهِ - عَنِ السَّمَكِ الَّذِي تَرَاهُ فِي بِلَادِنَا وَلَسْتَخْرِجُهُ مِنَ الْبَحَارِ ، وَهُوَ - فِي
نَظَرِهِمْ - سَمَكٌ صَغِيرٌ جَدًّا لَا يَكْفِي مَا يُبَدَّلُ فِي صَيْدِهِ مِنْ عَنَاءِ .

وَكَأَنَّا خَصَّصَ الطَّبِيعَةُ سُكَّانَ هَذِهِ الْبِلَادِ بِكُلِّ مَا يُنَاسِبُ ضَخَامَتَهُمْ ؛
فَهَذَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَرْضًا فسيحةً الْأَرْجَاءِ ، وَأَشْجَارًا سَامِقَةً
الْجُلُودِ بَالِغَةَ الْإِرْقَاعِ ، وَحَيَوَانَاتٍ غَابِيَةٍ فِي ضَخَامَةِ الْأَجْسَامِ . فَكَانَ كُلُّ
قَوْمٍ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ يُنَاسِبُ - فِي ضَخَامَتِهِ وَكِبَرِ حُجْمِهِ - سُكَّانَهَا .

وَقَدْ رَأَيْتُ - ذَاتَ يَوْمٍ - حُوتًا عَظِيمًا قَدِ اسْتَطَادَهُ أَحَدُ الصَّيَادِينَ ،
فَلَمْ يَسْتَطِعْ عِمْلَاقُ - مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ - أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى كِفْتَيْهِ لَضَخَامَتِهِ
إِلَّا بِمُتَعَدِّ شَدِيدٍ . وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى مَائِدَةِ الْمَلِكِ .

وفي هذه التملك لإحدى وخمسون مدينة، ومائة ضاحية نكسيفها
الأشوار، وعدد لا يحصى من القرى الصغيرة والمتلات، وكلها
إحالة بالشكان.

٤ - قصبة « بربدنجاج »

وليس في قدرتي أن أصف بلاد هذه التملك كلها، فلنقتصر القارئ
من يوصف العاصية التي أقمت فيها ردا من الزمن.

يخترق هذه المدينة نهر كبير فيقسمها قسمين متساويين قريبا وبها
ثمانون ألف منزل، ولا يقل عدد سكانها عن سبعمائة ألف نسمة. وهي
أطول من « إنجلترا » بنحو أربعة وخمسين ألف متر، وعرضها أفسح من
عرض « إنجلترا » بنحو خمسة وأربعين ألف متر. وقد عرفت ذلك من
المصورات الملكية لهذه البلاد، وطولها مائة قدم. وقد وضعها العلماء
إجابة لرغبات الملك.

وقد بسطت على الأرض لأدريسها.

أما قصر الملك، فهو على شىء قليل من النظام، يتألف من عدد

أربعين مقاربة، وفيه نحو سبعة آلاف قبو، ويبلغ ارتفاع أكبر الحجرات
فيه مائتين وأربعين قدما.

٥ - في شوارع « بربدنجاج »

وقد أعدوا لي عربة لاستراحة مع الحاضنة - في شوارع المدينة
ومبانيها، وأزور قناديقها وحدائقها، وكانت هذه العربة أشبه بحجوة
كبيرة مربعة الشكل.

والى لأذكر أن العربة قد وقفت بنا - ذات يوم - عند مكان أحد
التجار، فانتهر المستخدمون هذه العربة، وأقبلوا إلى باب العربة يتكفون؛
فرايت أمامي جمهرة من المرضى والتجزة، ودوى الماعز، ومثوهر
الخلقة، وعلى أجسادهم كومات من القاذورات، وقد تهيأت جروحهم،
وسرت فيها جراثيم الأمراض الفتاك. وما أنس لا أنس - ما عيبت -
تلك المناظر المرعبة المفزع التي رأيته في ذلك اليوم. وللقارئ أن يتخيل
شعوري - حينئذ - وأن يحكم بنفسه على الأمر السيئ الذي ركنه في حسي
رؤية هؤلاء المشوهين، ولعله يفييني من الإفاسة في أوصافهم البشعة.

بَشَرَةً ذَلِكَ الْوَجْهَ الْفَضَّةَ الرَّيْقَةَ : خَشَنَةً جَامِدَةً ، كَثِيرَةَ الشَّجَاعِيدِ ، وَاسَّةَ
الشُّبُوبِ ، لَيْسَ فِيهَا مَا كُنْتَ تَرَاهُ مِنْ جَمَالٍ وَطَرَاوَةٍ . وَهَذَا هُوَ سِرُّ مَا رَأَيْتَهُ فِي
هَؤُلَاءِ الْعَاقِلَةِ مِنْ تَنَافُرٍ وَتَشْوِيهِ . وَلَقَدْ صَدَّقَ الْفَيْلَسُوفُ الْقَدِيمُ حِينَ قَالَ :
«لَيْسَ فِي اللَّهِ نِيَا مَخْلُوقٍ دَمِيمٍ» ، فَإِنَّ كُلَّ مَا أَخْرَجْتَهُ يَدُ ذَلِكَ الصَّبَاحِ الْعَظِيمِ
الَّذِي أَبْدَعَ الْكَوْنَ ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، إِنَّمَا هُوَ جَمِيلٌ ۝ ۱ ۝

٧ - فِي الزُّورِ وَالصَّغِيرِ

وَكَانَتِ الْمَلِكَةُ - كَمَا قُلْتُ - تَأَنَسَّى إِلَى حَدِيثِي ، وَتَطَلَّبُ مِنْهُ الْعَزِيدَ ،
وَتَتَوَخَّى تَسْلِيَتِي وَإِلْهَاجِي كُلَّمَا وَجَدْتَنِي مُفَكِّرًا سَهْمُومًا . وَكَانَتْ كَثِيرًا
مَا أَقْصُرُ عَلَيْهَا أَنْبَاءَ أَسْفَارِي وَرِخَالَاتِي فِي الْبَحَارِ . فَسَأَلَتْنِي ذَاتَ يَوْمٍ :
« أَفَى قُدْرَتِكَ أَنْ تَسْتَقِلَّ زُورَقًا ، وَأَنْ تَجِدَفَ ، فَلَا يُصِيبَكَ حَرَرٌ ؟
أَوْ لَا تَرَى فِي مِثْلِ هَذَا التَّعْمِرِينَ سَلَوَى لِهَمُومِكَ وَأَحْزَانِكَ ، وَخَلَاصًا مِنْ
شُجُونِكَ وَأَفْسَاكَرِكَ ، وَتَقْوِيَةً لِحَسْبِكَ ، وَتَوْفِيرًا لِحِصْنِكَ ؟ »

قُلْتُ لَهَا :

« إِنِّي جِدْتُ خَيْرَ بِالْمَلَاخَةِ ؛ فَقَدْ كَانَتْ مِهْنَتِي الَّتِي تَخَصَّصْتُ لَهَا أَنْ

٦ - الْحَسَنُ وَالْفُحُجُّ

وَلَقَدْ رَمَتْ بِخَاطِرِي - فِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِي فِي هَذِهِ الْأَبْلَادِ - خَوَاطِرُ فِلَسْفِيَّةٍ
أَفْضَى بِهَا إِلَى أَقَارِي ، لَمَّا لَفَّ فِيهَا شَيْئًا مِنَ الْقَائِمَةِ ، وَدَرَسًا نَاصِلًا لِمَنْ يُرِيدُونَ
أَنْ يَكْتَرِفُوا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ ، وَيَتَنَفَّلُوا فِي لُبَابِهَا وَصَمِيمِهَا ، دُونَ أَنْ تَخْدَعَهُمْ
ظَوَاهِرُهَا الْخَلَابَةِ . فَقَدْ أَتَاخَتَ لِي الْفُرْصَةُ أَنْ أَرَى كَثِيرًا مِنْ رِجَالِ هَذِهِ
الْمَدِينَةِ وَبَنَاتِهَا ، وَلَا خُفْتُ أَنْ أَجْأَسَ أَكْثَرَ مَنْ رَأَيْتُ غَيْرَ مُنْصَفٍّ
وَلَا مُتَنَاسِبٍ . وَقَدْ عَرَفْتُ سِرَّ هَذَا التَّنَافُرِ ؛ فَإِنَّ الشُّبُوبَ إِذَا صَفَرَتْ قَلَمًا
بِرَاهَا الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا كَانَ وَاسِعَ الْخَيْرَةِ ، دَقِيقَ الْمُلَاحَظَةِ . فَإِنَّ كَثِيرَتَ
هَذِهِ الشُّبُوبِ وَصُوعَتَ ، أَذْرَكَهَا الْإِنْسَانُ بِأَذَى نَظَرٍ ، وَأَيْسَرَ مُلَاحَظَةٍ .
فَهَذَا الْوَجْهَ الْحَسَنُ - الَّذِي أَعْجَبَكَ جَالَهُ ، وَفَتَنَتْكَ رَوْعَتُهُ ، وَالَّذِي
انْتَقَلَتْ أَجْزَاؤُهُ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ التَّيْبَانُ وَالْأَثَمُ وَالْقَمُّ وَالذَّقْنُ وَالْوُجُجَتَانِ
وَالْبَجِينُ - يَرُوعُكَ سَنَظَرُهُ ، فَصِغَةُ بَشْتَى أَوْصَافِ الْحَسَنِ وَالْجَمَالِ . فَإِذَا
نَظَرْتَ إِلَيْهِ وَرَاءَ مِجْهَرٍ ، ظَهَرَ لَكَ كُلُّ مَا فِيهِ مِنْ عُيُوبٍ وَتَشْوِيهِ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ
الْمَجْرُودَةُ . وَنَمَّةٌ يَنْقَلِبُ بِإِعْجَابِكَ بِهِ وَافْتِنَانِكَ ، تَقَرَّرًا وَاشْتِبَاحًا ؛ إِذْ تَرَى

أَكُونُ طَيِّبًا لِلشُّعْنِ، وقد كان ذلك يَضْطَرُّني - في كثيرٍ مِنَ الْأَسَابِيغِ -
أَنْ أَعْمَلَ مَعَ السَّلَاحِيْنَ. ولكنني لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَشْتَغِلَ زَوْرَقًا فِي هَذِهِ
الْبِلَادِ؛ فَإِنْ أَشْفَرْتُ زَوْرَقٍ عِنْدَكُمْ كَأَكْبَرِ سَفِينَةٍ حَرَبِيَّةٍ عِنْدَنَا، عَلَى أُنْفَى
إِذَا ظَفَرْتُ بِزَوْرَقٍ سَافِرٍ يُنَاسِبُ حَاجَتِي، فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَجِدُفَ
مُدَّةً طَوِيلَةً فِي عَجَابِ أَنْهَارِكُمْ الْوَاسِعَةِ؛ فَإِنْ قَوَّيْ مَخْدُودَةً، مُنَاسِبَةً
سَأَلَهُ جِسْمِي.

فَقَالَتْ لِي جَلَالُهَا:

« أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمُرَّ النَّجَّارَ - إِذَا شِئْتَ - أَنْ يَصْنَعَ لَكَ زَوْرَقًا صَغِيرًا
يُنَاسِبُ حَاجَتِكَ، كَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَهْبِيْ لَكَ مَكَانًا صَالِحًا لِتَسِيرِ هَذَا
الزَّوْرَقِ الصَّغِيرِ. »

فَشَكَرْتُ لَهَا هَذِهِ الْعَنَاءَةَ الَّتِي اخْتَصَنَتْني بِهَا - وَلَمْ يَمْنَعْ عَلَى ذَلِكَ سِتَّةَ
أَيَّامٍ حَتَّى أَتَمَّ النَّجَّارُ صَنْعَ سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ كَامِلَةِ الْمُعَدَّاتِ. تَحْمِلُ سِتَّمَاةً مِنْ
أَمْثَالِي. فَلَمَّا أَتَمَّهَا أَمَرَنِي الْمَلِكُ بِعَمَلِ خَوْضٍ مِنَ الْخَشَبِ طَوْلُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ
قَدَمٍ. وَعَرَّضَهُ خُسُونٌ قَدَمًا، وَعُتِفَهُ ثَمَانِي أَعْدَامٍ، وَأَنْ يَطْلِيَهُ بِالْقَارِ - بَعْدَ
الْإِنْهَاءِ مِنْ صُنْعِهِ - حَتَّى لَا يَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ الْمَاءُ، ثُمَّ يَضَعُ ذَلِكَ الْخَوْضَ فِي

بَهْرٍ خَارِجِيٍّ مِنْ أَنْهَاءِ الْقَصْرِ. وَقَدْ أَوْصَتُهُ بِعَمَلِ الْبُوعَةِ فِي قَاعِ الْخَوْضِ
يَقْصِرُ بِفِ الْمَاءِ وَتَحْدِيدِهِ، فِي الْقَبِيَّةِ بَعْدَ الْقَبِيَّةِ. فَلَمَّا أَتَمَّ صَنْعَ الْخَوْضِ،
مَلَأَهُ اثْنَانِ مِنَ الْخَدَمِ فِي نِصْفِ سَاعَةٍ.



وَقَدْ وَقَّتِ الْمَلِكَةُ
وَوَسَّيْنَاهَا يَرْفَعِينَ
رُكُوبِي، وَأَعَجِبَنِي
بِمَهَارَتِي وَخَيْرَتِي
إِصْبَاحًا شَدِيدًا.

وَكُنْتُ أَتَشُرُّ
الْفِرَاقَ أَخِيَانَا، وَأَقُودُ

الزَّوْرَقَ حَتَّى يَقْرَبَ مِنْهُ، فَيُشْعِلُنَ الْمِرَاحَ، فَيَكُونُ هَوَاؤُهَا لِدَفْعِ الشَّرَاحِ
وَتَسِيرِ الزَّوْرَقِ. فَإِذَا كَبِعْتُ مِنْ ذَلِكَ جَاءَ الْخَدَمُ فَفَتَحُوا بَافُوهِمُ، فَيَنْطَلِقُ
الزَّوْرَقُ فِي الْخَوْضِ. وَكُنْتُ أَظْهَرُ أَمَامَهُنَّ - فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَيَّامِ -
مَهَارَتِي فِي تَسِيرِ الزَّوْرَقِ مِنَ الْعَائِصِيَةِ الْأَيْتَنِ إِلَى الْأَيْسَرِ - كَمَا يَخْلُوَنِي -
وَكُنْتُ يَعْجِبُنَّ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَجَبِ.

فَإِذَا انْتَهَيْتُ مِنْ ذَلِكَ ، رَفَعَتِ الْحَاضِنَةُ زُورْقِي يَدَيْهَا ، وَعَلَّقَتَهُ بِسِمَارٍ فِي حَائِطِ الْقَصْرِ لِجَفِّ .

٨ - عَلَى شَفَا الْهَلَاكِ

وَقَدْ وَقَعَ لِي - ذَاتَ يَوْمٍ - حَادِثٌ مُرَوِّعٌ كَادَ يَقْضِي عَلَى حَيَاتِي . قَدْ وَضَعَ أَحَدُ الْخُدَمِ الزُّورْقَ فِي الْحَوْضِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِالذَّهَابِ إِلَيْهِ حَتَّى جَاءَتْ سَيِّدَةُ فَرْغَتْنِي يَدَيْهَا لِتَضَعَنِي فِي السَّعْبَةِ ؛ فَأَنْزَلْتُ مِنْ بَيْنِ أَسَابِيحِهَا ، وَكَدَنْتُ أَهْوَى مِنْ هَذَا الْإِرْتِفَاعِ الشَّامِخِ الَّذِي لَا يَقِلُّ عَنْ أَرْبَعِينَ قَدَمَا . وَلَكِنَّ اللَّهَ كَتَبَ لِي السَّلَامَةَ مِنْ هَذَا الْهَلَاكِ الْمُحَقَّقِ ، فَمَلَقْتُ نِيَابِي - لِحُسْنِ حَظِّي - بِ« دَبُوسٍ » كَبِيرٍ كَانَ فِي نِيَابِهَا مُحَازِيئًا صَدْرَهَا ، فَلَمِثْتُ مَعْلَقًا فِي الْهَوَاءِ ، وَأَسْرَعَتِ الْحَاضِنَةُ إِلَيَّ ، فَأَقْدَسَنِي مِنْهَا أَنَا فِيهِ .

٩ - ضِفْدَعٌ « بُرْبُذَنْجَا »

وَوَقَعَتْ لِي حَادِثَةٌ أُخْرَى مُفْرَعَةٌ لَا أَنْسَاهَا مَا حَيِّتُ . قَدْ أَهْلُ أَحَدُ

الْحَادِثِينَ الصُّوْطَ بِمَا مَلَأَ الْحَوْضَ ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمَا أَنْ يُجِدُوا مَاءَهُ مَرَّةً فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ؛ فَفَقَّرَ



ضِفْدَعٌ كَبِيرٌ إِلَى الْحَوْضِ وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنْهُمَا ، وَاسْتَحْفَى

فِي الْمَاءِ حَتَّى رَأَى زُورْقِي ،

فَقَفَزَ عَلَى أَحَدِ جَانِبَيْهِ ،

فَأَمَالَهُ حَتَّى كَادَ يُغْرِقُهُ .

فَجَلَسْتُ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ

مِنْ الزُّورْقِ ؛ لِأَحُولِ

يَوْمٍ إِغْرَاقِهِ ، وَظَلِمْتُ أَشْرِبُ ذَلِكَ الضَّفْدَعُ بِمِجْدَافِي - جَوْزٍ شَدِيدَةٍ -

حَتَّى قَفَزَ إِلَى الْمَاءِ نَائِيَةً . وَقَدْ تَرَكَ هَذَا الْحَادِثُ فِي نَفْسِي أَثَرًا لَا يُمِيتُنِي ، وَلَا

أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْسَاهُ طَوْلَ عُمُرِي !

١٠ - قِرْدُ « بُرْبُذَنْجَا »

وَهَبَّتْ أَنْ أَنْسَى أَشْأَمَ حَادِثٍ وَقَعَ لِي فِي هَذِهِ الْبِلَادِ : قَدْ أَعْلَقْتُ عَلَى

العائنة باب الحجرة - ذات يوم - وخرجت ليعين شأنها، وكان اليوم
شديد الحر؛ فتفتحت نافذة عليّ المظلة على بهو القصر. وإلى لفارق في
تكبري وأخراف على مقرّبة من المستدر، إذ سمعت صوتاً غريباً،
وأحسنت شيئاً يدخل البهو - من نافذته المفتوحة - ثم يقفز فيه. فأملاً
قلي رعباً، ولكنني تشجعت قليلاً، ونظرت من نافذة عليّ وأنا جالس
في مكاني، فرأيت حيواناً يذئ من العلبة وينظر إليّ، وقد بدت عليه أمارات
المرج والذهشة؛ فارتويت في أفقي ركن في الحجرة، وقد فأتني - ليوه
خطي - أن أختي تحت سريري، وقد كان ذلك مبشوراً لي - لو قطعت
إليه - ولكنه القضاء الذي لا مرد لحكميه، ولا حيلة للإنسان في دفعه.
وتسكن ذلك الحيوان - وقد علمت بعد قليل أنه قرود - من
إدخال يديه من نافذة العلبة، حيث أمسك بدليل ثوبي - وهو مصنوع
من النجوخ الفليظ المتين - وحذني بقوة إلى الخارج. ثم حملني في كفه
اليمنى - كما تحيل الأم رضيعها لرضعته - فدكرني ذلك بقرود خبيث
رأيت في بلادى بصنع مثل هذا مع قطير صغير. وما همت بمقاومته
حتى شعني ضمة عنفة كادت ترقق روعي؛ فرأيت من العزامة

والكياسة أن أذعن للقدّر، وأكف عن المقاومة. وكأنما توهمني قروداً
صغيراً، لأنه كان يداعيني وربّت وجهي بيده مترقفاً مشروراً.

وأحسن القرود خلق أقدم قريب، وسبع صرير الفتح، فكف عن
مداعبي فجأة، وقفز مشرعاً - من النافذة التي جاء منها - إلى اليزاب،
وهو يسير على رجلين، ويد واحدة، وقد أمسكني باليد الأخرى، وما زال
يقفز حتى وصل إلى سطح البيت المجاور لنا. وسيمت في هذه اللحظة
صراخاً هائلاً منيماً من العائنة التي أقفم قلبها الفرع، واشتوى عليها
الناس حتى كاد يفقدوها رعداً. وأسرع خدم القصر يحاولون إقاضي، فلا
يجدون إلى ذلك سيلاً. واه بعضهم بالسلاطيم، واجتمع كثير من الناس
ليرؤوا هذا المظهر العجيب. وقد جلس القرود على ذروة الشطع، وحلني في
إحدى كفيه - كما تحيل الطفل دميته - وظل يطعمني بكنه الأخرى،
ويخرج قطع اللحم - التي سرقها - في فمي زجاً، وكلما امتنعت عن
الأكل لطمني؛ فاذنقت له مرغماً. وقد أمتك القرود - بهذا العمل -
كثيراً من الشهاد الذين وقفوا يشهدون ذلك المنظر، فلم يسألوا من
الضحك - ولهم الحق - فقد كان المنظر مساباً مضحكاً حقاً، إلا في

نظري أنا وخدي؛ إذ كنت بطل هذه الساعة المُنَجَّمة، وكنت عرضة
للهلاك بين لحظة وأخرى !



وهم بعض النظارة
يقذفون بالحجارة ،
ليزعموه على الشؤل من
سطح القصر إلى الأرض،
ولكنهم عدلوا عن ذلك
خشية أن يصيبني حجر

من أحجارهم ، فيحطم رأسي تحطيمًا . وما ازلوا السلام ، حتى
فرغ القرد وفر هاربًا من مكانه . بعد أن تركني أهوى من ذلك العلو
المائل . وقد كنت - لاشك - هالكًا ، لولا أنقذني الله في عيانيته ؛ فقد
سقطت على أحد ميازيب القصر ، فأسرع غلام نسيط إلى مكاني ، فأقذني
من السقوط . ثم وضني في جنبه ، وعاد - من حيث أتى - فأسلمني إلى
الحاضنة الصنيعة ، وقد فرحت بسلامتي من الهلاك فرحًا لا يوصف .

...

ولا أكنتم القاري أنني كنت على وشك الاختصاص بملك الأقدار التي
كان يزج بها القرد في قبى . وقد أدركت الحاضنة حقيقة أمرى ، فبدلت كل
جهدا حتى تمايأت ؛ فخف ما بي من الألم . وكان الضعف قد بلغ بي كل
مبلغ ، وكادت أضلعي تنكسر من ضمة ذلك القرد النخيت . وقبضت
طريح الفراش خمسة عشر يومًا كاملة ، وكان الملك وحاشيته يبعثون إلى
في كل يوم بحياتهم مُستفسرين عن ضيحي . وقد شرفني الملكة
بزيارات عدو إبان مرضي . ثم صدر الأمر بإهلاك ذلك القرد ، وإنعاد
جميع القردة ، وألا يرحس لأحد من القاطنين في الشوارع المجاورة
للقصر باقتهاء قرد في بيته .

١١ - في حضرة الملك

وما تماثلت من المرض ، ودخلت في دور النقو ، حتى ذهبت إلى
جلالة الملك لأعكر له نفضله بالشؤال عني ، والعيانة بأمرى . ولما
تمثلت بين يديه حيائي مبتسمًا ، وظل يداعبني . وقد أغرب في الضحك
حين تصور ذلك الحادث المفزع الذي وقع لي ، وسألني مُستفسرًا :

« خَبَرَنِي كَيْفَ كَانَ وَقَعُ هَذَا الْحَادِثِ فِي قَلْبِكَ ؟ وَأَيُّ أَثَرٍ تَرَكَهَ ؟ وَمَاذَا أَحَسَّتِ وَأَنْتِ بَيْنَ يَدَيِ الْقَرْدِ ؟ وَهَلِ اسْتَطَلَّتْ مَا قَدَّمَهُ لَكَ مِنْ لَحْمٍ شَيْءٍ ؟ وَهَلِ زَادَ الْهَوَاءُ الشَّقِيَّ - الَّذِي اسْتَشَفَّقْتَهُ فَوْقَ سَطْحِ الْقَصْرِ - فِي شَيْئِكَ لِذَلِكَ الطَّامِ الْطَيِّبِ ؟ وَأَيُّ أَثَرٍ كَانَ يَتْرُكُهُ مِثْلُ هَذَا الْحَادِثِ فِي قَلْبِكَ لَوْ وَقَعَ لَكَ فِي بَلَدِكَ ؟ »

قُلْتُ لِبَلَدِي:

« لَيْسَ فِي أَوْرُبَةٍ مِنَ الْقِرَدَةِ إِلَّا مَا تَجَلَّبُهُ مِنَ الْبِلَادِ الْأُخْرَى . عَلَى أَنَّ الْقِرَدَةَ - الَّتِي تَرَاهَا فِي بِلَادِنَا غَايَةٌ فِي الضَّرَرِ ، فَلَا يَخْشَى أَذَاهَا أَحَدٌ .

أَمَّا هَذَا الْقَرْدُ الَّذِي اخْتَطَفَنِي - وَهُوَ فِي مِثْلِ مَخَاطَمَةِ الْقَيْلَةِ عِنْدَنَا - فَهُوَ مَرْمُوبٌ الْأَذَى ، مَخْشَى الضَّرَرِ . عَلَى أَنِّي أَؤْكَدُ لَيْسَ لِي أَنَّ الْخَوْفَ قَدْ أَذْهَلَنِي عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ، فَأَنْسَايَ أَنْ أُجَرِّدَ حُسَامِي لِمُتَابَلَتِهِ وَدَفْعِهِ أَذَاهُ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَعَرِضْتُ يَدَهُ بِالْعَسَايِمِ حِينَ أَذْخَلَهَا فِي خُبْرَتِي ؛ إِذْ نَزَّجَرَحْتُهَا جُرْحًا يَلِينًا ، يَدْفَعُ عَنِّي أَذْيَتَهُ ، وَيَرْجِعُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَى ! »

وَدِمَ تَمَلُّكُنِي الْعَمَاسَةُ وَالْقُرُورُ - حَيْثُ - فَوَدِمْتُ يَدِي عَلَى

تَقْبِضِ سَيْفِي - شَأْنُ الْعَارِيسِ الشُّجَاعِ الْمُخْتَالِ - وَكَانَتْ تَبْرَأُ سَوْرِي تَدُلُّ عَلَى الزُّهْرِ ، وَقَدْ تَمَلَّكُنِي شُورُ الرَّجُلِ النَّبِيلِ الْقِيُورِ عَلَى شَرَفِهِ !

وَرَأَى الْعَاقِلَةُ أَمَامَهُمْ حَشْرَةً ضَبِيلَةً تُدَاعِجُ عَنْ كَرَامَتِهَا وَشَرَفِهَا - مُبَاهِيَةً مَرْمُوءَةً - فَلَمْ يَتِمَّا الْكُؤُومَ مِنَ الضَّحِكِ ، وَلَمْ يَحُلْ جَلَالُ مَجْلِسِ الْبَيْتِ وَوَقَارُهُ دُونَ أَنْ يَسْخَرُوا مِنْ غُرُورِي وَخُبْلَائِي !

فَأَذْرَكْتُ خَطِيئِي - حَيْثُ - وَالتَّمَسْتُ لِهَوْلَاءِ الْعَاقِلَةِ الْمُدَّرِي فِي سُجْرِ بَيْتِهِمْ مَنِي ، وَذَكَرْتُ أَنَّ مِنَ الْبَلَاءَةِ أَنْ أَذْكَرَ الشُّجَاعَةَ وَالْقُوَّةَ أَمَامَ قَوْمٍ فِي مِثْلِ قُوَّةِ الْمَرَدَّةِ وَطُولِ قَامَاتِهِمْ . وَتَمَلَّضْتُ غُرُورَ بَعْضِ الصَّعَالِكِ الَّذِينَ طَالَمَا سَخِرْتُ - فِي بِلَادِنَا - مِنْ إِدْعَائِهِمْ وَتَبَجُّحِهِمْ أَمَامَ سَرَاةِ الْبِلَادِ وَحُكَّامِهَا ، وَكَيْفَ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِالْمَجْدِ وَالشَّرَفِ ، فَلَا يَتَلَقَّوْنَ إِلَّا الْإِزْدِرَاءَ وَالتَّخْفِيرَ !

١٢ - بَيْنَ الْحَاصِيَةِ وَ« حِلَقَر »

وَلَمْ أُنَسْ هَذَا الدَّرْسَ - مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ - فَأَخَذْتُ عَلَى تَقْيِي أَنْ

أُجَارِيهِمْ فِي عَادَاتِهِمْ ، وَأَقْسَ عَلَى الْحَاشِيَةِ - فِي كُلِّ يَوْمٍ - قِصَّةٌ مُضْحِكَةٌ طَرِيفَةٌ ، حَتَّى أَصْبَحْتُ حَيِيًّا إِلَى كُلِّ نَفْسٍ .

وَكَانَتِ الْحَاضِنَةُ - عَلَى حُبِّهَا إِيَّايَ - تَمِيلُنِي إِلَى مُدَاعِنَتِي ، فَتُسِرُّ لِي الْمَلِكُ كَرِيمًا أَقْعُ فِيهِ مِنَ الْفَنَاطِ ، لِتَشْتَرِكَ مَعِيَ فِي السَّرُورِ وَالْإِنْتِهَاجِ ، وَلِتَضْحَكَا مَعِي مَا شَاءَتَا أَنْ تَضْحَكَا .

فَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ لِي - فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ - إِذْ زِلْتُ مِنَ الْعَرَبَةِ وَمَتَّيْتُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَاشِيَةِ . وَإِنِّي لَا تَسْرُهُ إِذْ اغْتَرَضَنِي فِي طَرِيقِ زَوْتٍ بَقَرَةٍ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَظْهَرَ مَهَارَتِي ؛ فَهَفَزْتُ - مِنْ فَوْرِي - وَلَكِنِّي سَقَطْتُ لِسُوءِ حَقْلِي ، وَلَمْ أَخْرُجْ إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ . وَقَدْ تَكَلَّوْنَا نِيَّابِي ؛ وَحَاولَتِ الْحَاضِنَةُ وَالْخَدَمُ تَنْظِيفَهَا ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ . وَأَبَّتِ الْحَاضِنَةُ الْحَقْلَاءُ إِلَّا أَنْ يُذْبِغَ نَبَأُ هَذَا الْعَادَةِ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ ! ...

الفصل الخامس

١ - مُشْطُ « جَبَقَر »

كَانَ مِنْ عَادَتِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْمَلِكِ عِنْدَ اسْتِيقَاضِهِ مِنَ النَّوْمِ فِي الصَّبَاحِ ، مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ . وَكَثِيرًا مَا رَأَيْتُ الْخَلَّاقَ عِنْدَهُ وَهُوَ يَخْلُقُ لِحَيْتَهُ . وَأَذْكُرُ أَنِّي حِينَ رَأَيْتُهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى - وَالْخَلَّاقُ جَادٌّ فِي

خَلْقِ لِحَيْتِهِ - امْتَلَأَتْ نَفْسِي رُغْبًا وَهَلْكَامًا ؛ فَتَدَكَانَ طُولُ النَّوَسَى أَكْبَرَ مِنْ ضِعْفِ طُولِ الْمِنْجَلِ عِنْدَنَا .

وَكَانَ مِنْ عَادَةِ

جَلَالَتِهِ أَنْ يَخْلُقَ لِحَيْتَهُ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ ؛ عَلَى حَسَبِ تَقَالِيدِ هَذِهِ الْأَلْبَادِ وَعَادَاتِهَا .



وقد طلبت من الخَلَفِ - ذات مرة - أن يُعطيني عدة شَرَاتٍ من لِيغَةِ المَلِكِ ، فلم يردّ في إجابتي إلى طلبي . فأخذت قطعة صغيرة من الخَشَبِ وَتَقَبَّتْهَا - بِأَبْرَةٍ - عدة ثُوبٍ على مسافات متساوية منتظمة . ثم أَدَخَلْتُ - في تلك الثُوبِ - ما أخذته من شَرَاتِ المَلِكِ بدقّة وانظّاهم ، ونمّ لي صنْعُ المُشَطِّ الَّذِي أَرَدْتُهُ . وكان المُشَطُّ الَّذِي أَحْصَرْتُهُ من بلادِي قد انكسر : فاستبدلتُ به هذا المُشَطَّ المَتِين ، بعد أن عَجَزْتُ عن الظفر بِمُشَطِّ صَغير ، وبِلِسْتُ من الثُوبِ على عاملٍ كُفء يصنَعُ لي المُشَطَّ الذي يُلائمني .

٢ - كُرْسِيٌّ « حَلِقَر »

وما إن ظفرتُ بتحقيقِ هذه الرُّغْمَةِ ، حتى سَخَّ لي خاطرٌ آخرُ ، فَرَجَعْتُ إِحْدَى خَادِمَاتِ المَلِكِ أَنْ تَلْتَقِطَ لي ما يسقط من رَأْسِهَا من شَرَاتٍ - في أثناء امْتِشاطِهَا - فلبتُ طلبي ، وأحضرت لي عدداً كبيراً من شَرَاتِ المَلِكِ . فأعطيتها للتَّجَارِ لِيصنَع لي كُرْسِيَّين يُنَاسِبَانِ مَنَآلَةَ جِسمي ، وأرشدته إلى طريقةِ صنْعِهما ، وأوصيته أن يكونا في حِجْمِ الكُرْسِيَّينِ اللّذينِ

صَنَعْتُهُمَا من قَبْلُ ، وأن يُقَبَّ الخَشَبَ عدة ثُوبٍ منتظمة . فلما أتتهما مِلَأْتُ ثُوبَهُمَا بِشَرَاتِ المَلِكِ ؛ فأصبح عندي مَقْعَدَانِ فَخِيرانِ وَفَقَّ مَا أَشْتَعِي وَأُرِيدُ . ثم أَهْدَيْتُهُمَا إلى المَلِكِ ؛ ففَرِحَتْ بهما ووضعتُهما في خِزانَتِهَا ، بعد أن شكرتُ لي أن أَهْدَيْتُ إليها هَاتَيْنِ الطَّرَفَتَيْنِ الَّتِي نَتَيْتُ ! وأذْكَرُ أَنَّهَا طلبتُ لي - ذات يوم - أن أَجْلِسَ على أَحَدِهما ، فَأَعْتَذَرْتُ لَهَا قَائِلاً :

« لَنْ تَصِلَ لي الجُرْأَةُ وسوءُ الأدَبِ إلى حَدٍّ أَنْ أَجْلِسَ على هَذِهِ الشَّرَاتِ المُحْتَرَمَةِ الَّتِي زَيَّنْتُ - من قَبْلُ - رَأْسَ المَلِكِ الجليلِ ! »



وبعد أيامٍ صُنِعْتُ
من شعرها كِيساً
جِيلاً طوله ذراعانِ ،
وطَرَزْتُهُ بِاسْمِهَا

بِحُرُوفٍ مِنَ الذَّهَبِ . ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُهَا في إِهْدَائِهِ إلى الحَاضِرَةِ ؛ فَأَزَنَتْ لي في ذَلِكَ ، وهي مسرورةٌ بِإِخْلَاصِي ، وَحُسْنِ وَفَائِي لِهَذِهِ الحَاضِرَةِ الوَفِيَّةِ .

وكان أحدُ مدرّسي الموسيقى يمهّدُها ، ويُخصّصُ لعلّيتها درّسين في كل أسبوع .

وقد عَن لي أَنَّ أَغْرَفَ لَعْنَتَا مُوسِيقيًا أَمَامَ جَلالَتِي المَلِكِ والمَلِكَةِ ،

ولكنّ ذلك لم يكن
بالأمر اليسير الهين ؛

فقد كان طولُ كلِّ

دَسْتانٍ من الدَسْتانين

سِتِّينَ قَدَمًا ، وعَرْضُهُ

قَدَمًا ، وكنتُ

— إذا بسطتُ ذراعِي

كلَّ البَسْطِ —

لا أستطيعُ أن أَلْمَسَ

أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ

دَسْتانين ، وكنتُ

— إلى ذلك — لا أستطيعُ أن أحرّكَ الدَسْتانَ يَاسَمِي ؛ لأنَّ إخراجَ النَفْثَةِ



٣ — مُوسِيقا المَمالِقَةِ

وكان لِمَلِكِ « بُرْهَنْجَا » شَفَقٌ شديدٌ بالمُوسيقا . وقد شهدتُ كثيرًا
مِنَ الحَفَلاتِ المُوسِيقِيَّةِ الَّتِي أقامها . وكنتُ أشهدُ تلكَ الحَفَلاتِ
— وأنا في عُلمَتِي — ولكنَّ مُوسيقاهُم كانت تُزَعِجُنِي أشدَّ الإزعاج ، لأنَّ
أصواتها شديدةُ الإزْطاع .

ولم أَكُنْ أستطيعُ تمييزَ النِّعَماتِ بَيْنَ هَذَا الصَّخَبِ — وهِيَ على
مَقَرَّبَةٍ مِنْ أذُنِي — ولم أَطِيقُ صَبْرًا على سَماعِ الطُّبُولِ .

فقد كنتُ أَسْمَعُ لها دَوْبًا ها تِلْها مُرْعَبًا ، ولم يكن في قدرتي أن أحتِيلَ
أصواتَ أبواقِهِم المُفْرَعَةِ . فاشتأذتُ المَلِكَ أنْ أَكُونَ في عُلْبَتِي
على مَسافَةٍ بَعيدَةٍ مِنَ المُوسِيقا ، فكنتُ أَقْبِلُ على بابِ عُلْبَتِي ونافذَتِها .
وَأَسْدَلْتُ أَشْجارَها ، قَبِيعَتِ الصَّوْتِ والضَّوضاءَ ، وبذلك يَتَسَكَّى لِي التَّمييزُ
بَيْنَ أَصْغَارِها المُخْتَلِفَةِ .

وَكنتُ على شَيْءٍ مِنَ العِلْمِ بالمُوسِيقا ؛ فقد تَعَلَّمْتُ — في حَدائِثِي —
الإِجْتاعَ على التَّمازِفِ . وَرَأَيْتُ في عُرْفَةِ الحاضِنَةِ مِمَّنْ قَدْ تَعَلَّمُ التَّزَفَ عَلَيْهِ ،

الموسيقى على هذا الدستان الضخم العظيم يكلفني أن أضربَ عليه
بجمع يدي ضربة شديدة.

وبعدَ فِكرٍ طويلٍ اُعتدْتُ إلى طريقةٍ ناجحةٍ؛ فأحضرتُ عَصَوَيْنِ
- في مِثْلِ ضَخامةِ عَصِيْنَا المعتادةِ - ثم عَشَيْتُ طرفَيْهما بِجِلْدٍ فَأَرَوُ ،
حتى يَسْتَلِيَ لِي أَنَا أَغْرِفَ هِمَا عَلَى الدَّسَاتِينِ . ودَعَوْتُ الْمَلِكَ وَالْمَلِكَةَ ، بِهَدَى
أَن أَتِيَتْ بِمَقْعِدٍ طَوِيلٍ ، فَأَدْبَعْتُهُ مِنَ الدَّسَاتِينِ ، ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَيْهِ ، وَظَلَلْتُ
أَجْرِي - فِي رَشَاقَةٍ وَسُرْعَةٍ - عَلَى ذَلِكَ الْمَقْعِدِ الْمُسْتَطِيلِ ، وَأَنَا أَدُقُّ
الدَّسَاتِينِ بِعَصَوَيَّ دَقًّا شَدِيدًا يَكَلُّ قُوَّتِي ، حَتَّى أَتَمَمْتُ عَزْفَ لَحْنِ
مُوسِيقِي رَاتِعٍ ، أَمَامَ الْمَلِكَيْنِ (الْمَلِكِ وَالْمَلِكَةِ) . وَقَدْ أَعْجَبَا هَذَا
الْلَّحْنَ الَّذِي كَلَّفَنِي جُهْدًا مُضْنِيًا . وَإِنِّي أُوَكِّدُ لِلْقَارِئِ أَنَّنِي لَمْ أَتَسَكَّبْ
فِي حَيَاتِي كُلِّهَا - مِنَ الْجُهْدِ وَالنَّهَادِ - مِثْلَ مَا تَسَكَّبْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ! ...

٤ - بين « جَلْفَر » وَمَلِكِ « بَرْبِنْجَا »

عَرَفْتُ الْمَلِكَ - كَمَا اسْتَفْتُ - وَاسِعَ الْعِلْمِ ، مَوْفُورَ الذِّكَاةِ ؛
كَأَنَّ عَرَفْتُهُ طَلَعَةً ، مُوَلِّمًا يَتَصَدَّى الْأَخْبَارِ . وَكَانَ ذَلِكَ كَثِيرًا مَا يَدْفَعُهُ إِلَى

اسْتِدْمَائِي إِلَيْهِ ، وَالتَّحَدُّثِ مَعِي . وَكَسْتُ أُحْمِلُ إِلَيْهِ فِي عُلْيَتِي ، ثُمَّ أَوْضَعُ عَلَى
الْيَنْصَدَةِ - حَيْثُ أُخْرِجُ مِنَ الْمَلَكَةِ ، فَأَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ فَوْقَ الْيَنْصَدَةِ
بِحَيْثُ أَكُونُ مِنْهُ وَجْهًا إِلَى وَجْهِهِ - ثُمَّ تَتَجَادَبُ أَطْرَافُ الْحَدِيثِ .



وَفِي يَوْمٍ مِنَ
الْأَيَّامِ تَدَاوَلْنَا الْقَوْلَ ،
وَشَجَعَنِي مَا رَأَيْتُهُ
فِيهِ مِنْ رَجَاحَةٍ عَقْلِيَّةٍ
عَلَى أَنَّهُ أَكْاشَفَهُ بِمَا
فِي نَفْسِي ، فَقُلْتُ لَهُ :

إِنِّي اخْتَارْتُ

لِأَهْلِ أَوْرُبَةٍ وَغَيْرِهَا مِنْ قَارَاتِ الْعَالَمِ لَا يَتَنَبَّؤُ - كَمَا يَبْدُو لِي - مَعَ ذَلِكَ
الْقَلْبِ الرَّاجِحِ الَّذِي يَتَنَازَرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ . وَمَا أَبْجَدَرَنِي أَنَّ
أُكْاشِفَهُ بِمَا أَعْتَقِدُهُ صَوَابًا . فَإِنِّي أَرَى أَنَّ رَجَاحَةَ الْقَلْبِ لَيْسَ لَهَا آيَةٌ
صِلَةٌ بِضَخَامَةِ الْأَجْسَامِ وَكَثَرَتِهَا . وَقَدْ أَقْنَعْتُنَا الْمَلَاخِظَةُ وَالتَّجَارِبُ
- فِي بِلَادِنَا - بِتَكْسِرِ مَا يَتَعَدُّهُ : قَدْ طَالَمَا رَأَيْنَا أَنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ

قائمة ليس أوفرهم عقلاً ، وكثيراً ما رأينا من طوال الناس من أصبح
مضرب التكل في الحماقة والبقوة . وليس ذلك مقصوداً على الإنسان
وحده ، بل يشركه فيه بعض الحيوان . وقد امتازت النحلة كما امتازت
النملة ، على غيرهما من الحيوان بضروب شتى من المهاراة والذكاء
بدعتهن لها التماثل . فإذا كنت - كما رأت - ضئيل الجسم ،
فليس معنى ذلك أنى ضئيف القسرة ! فقد أكون قادراً على أداء كثير من
جلائل الأعمال !

وكان الملك يصنئ إلى حديثي بأنبياء شديدة ! فاستصوب ما قلته له ،
واقنع بصيحه ، وبدأ ينظر إلى - منذ هذه اللحظة - نظرة احترام
وتقدير ، وأكبر عني ، فلم يعد يعبسه إلى قمتي كما كان يفعل من قبل .

٥ - حديث عن الوطن

وقد كان من أثر ذلك أن أمرني أن أذكر له بياناً دقيقاً عن حكومة
بلادى ، لئفيس ما يراه من تقلد صالحة ، ومزايا ناعمة .
ومثل لنفسك - أيها القارئ العزيز - ما كنت أشعر به حين طلب

إلى أن أتحدث عن وطني العزيز ! لوددت - حينئذ - أن تكون لي
عبرة « دبستين » و « شيشيون » ، وروعة بيانهما ! لأني وطني العزيز
بعض حق - من الوصف والتصوير - حتى أتركت في نفس الملك أسمى
فكرة عنه .

٦ - دار النيابة

وقد بدأت حديثي بالكلام عن موقع بلادى الجغرافي ، وذكرته له
أن بلادنا تتألف من جزيرتين تحويان ثلاث ممالك قوية ، يحكمها ملك
واحد ، وأن لنا - إلى ذلك - مستعمرات في خارج بلادنا . ثم حدثته
عن حبيب أرضنا ، وعن أجوائها وأهويتها ، ووصفت له دار النيابة عندنا ،
وكيف تتألف من مجلسين ، أحدهما تطلق عليه اسم : « مجلس الأغنياء »
والثاني : « مجلس الموم » ، وأن المجلس الأول يضم سراً البلاد
وتبلاعهما وأشرفها الذين نشأوا من أعرق الأسر الكريمة حباً وأشرفها
نسباً ، بعد أن يأخذوا بأوفر قسط من الثقافة والتربية العلمية والحرية
والسياسة ، حتى ينضج عقولهم وتنشيم فطرهم ، ويضجوا أهلاً لتقبل

البلاد، فيكون لهم نصيبٌ في إدارة الحكومة، ويكونوا موضعَ ثقةِ البلاد التي تُعَدُّهم للاستشارة في أكبر مُضْطَلَبَاتِهَا، وتخلُّ أزماتها، والدفاع عن شرفها، ثم تختارهم أعضاء في محكمة المَدَالَةِ التي لا تُقَبَّلُ لأحكامها. وهؤلاء هم فخرُ البلاد وزينتها، وأبرُّ أبنائها بها، وأكرمهم عليها. وهذا المجلسُ يضمُّ - إلى تلك الصفوة المختارة من سادة البلاد وحكامها - عددًا كبيرًا من صفوة رجال الدين وعلمائه المُتَمازِينَ، وهؤلاء مُتَعَيِّنُونَ بالسُّهَرِ على الأخلاقِ ونُصْرَةِ الشريعة. وهم يجمعون - إلى مائة الخلق - سمة الإطلاع، ورجاحة العقل؛ وبذلك كانوا أهلًا لهذا المركز السامي الذي رَفَعَتْهُمْ إليه البلادُ.

...

أما المجلسُ الثاني - أعني «مجلسُ الموم» - فهو يتألف من أفذاذِ المفكرين ورجالِ العمل الذين يختارهم الشعبُ، ويُولِيهم ثقةً، ويُنَيِّبهم عنه، بعدَ الذي عرَفه فيهم من المواهب السامية، والمزايا الثمينة، والكفاياتِ الثابتة، والتضاني في نُصْرَةِ الوطن. وهذا المجلسُ يمثلُ حِكْمَةَ الشَّعْبِ وِدْرِيَّتَهُ.

وذكرتُ له أنَّ هذين المجلسين يُكوِّنان أكبرَ مجلسٍ نيابي في العالم. وهذا المجلسُ - وعلى رأسه جلالَةُ الْمَلِكِ - يُقْرِفُ على كُلِّ شُؤْنِ الْمَمْلَكَةِ، ويسُنُّ لها النُظُمَ التشريعية، ويقضى في كُتُبِيَّاتِ المسائلِ الجَوْهَرِيَّةِ التي تُشَقُّ بِأَلِ الدَّوْلَةِ.

...

ثم ذكرتُ له محارِكتنا وما تمتازُ به من الجُرْصِ على العدلِ، والفصلِ في منازعاتِ الأفراد، وتَوْخِي النُزَاحَةِ وَالْإِنْصَافِ في الأحكام، ومعايَةِ المجرمين، وحماية الأبرياء. وامتدحتُ له حُسْنَ إدارتنا الماليَّةِ، وما يَتَوَخَّاهُ رجالُ الإقتصادِ عندنا من الحِكْمَةِ في إتحاقِ أموالِ الدولة في كلِّ ما بودُّ عليها بالقائدة والخيرِ العميم. ووصفتُ له مزايا رجالِ الجيشِ من الجنودِ البرِّيَّةِ والبحريَّة، وما يُظهرونه من البسالةِ والإِسْهَابَةِ بالموتِ، وبذلِ أرواحهم رَحِيصَةً في الدُّوْرِ عن الوطنِ وحمايته من غاراتِ الأعداء، وما امتازُوا به من الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ. وقلتُ له - فيما قلتُ - إنَّ شَعْبَنَا يتألفُ من ملايينِ الرِّجَالِ وشخى الأحزابِ السِّيَاسِيَّةِ والأديانِ المختلفة. وحدَّثته عن ألبانيا وملايئنا، ولم أَغْفِلْ شيئًا من خصائصِنا ومزايانا

المشرفة. وختمت حديثي بالأعلام بما وقع في بلادنا من الثورات منه مائة عام، وتوحيث - في ذلك - الإيجاز والدقة وحسن البيان. وقد استغرقت هذه المحاضرات خمس جلسات كاملة، كتبتُ أحدثت في كل جلسة منها عدة ساعات. وكان الملك يُسنى إلى أقوالى في التباين وبظلة دائمين، ويكتب خلاصة ما أقولُ لِنَاقِشَتِهِ فيما بعد.

٧ - أسئلة وانتقادات

فلما كان اليوم السادس، بدأ الملك يناقشني في كل ما ذكرته له مناقشةً دقيقة، وكان قد أعدَّ ملاحظاته وأسئلته، فأفضى إلى بدخلتِ قصير، وكاشفتني بما ياوره من الشكوك والريب فيما قلته له. ولقد كان - في الحق - دقيقاً في ملاحظاته، قاسياً في أحكامه، ولم يكن من المتيسر أن أقيمه بخطلي رأيه وبُعْدِهِ عن الصواب.

٨ - أعيان الدولة

والإقارئ ما قاله لي في حوارٍ طويل:

«ما هي الوسائل التي تتبناها في تنقيف أبناء المظالم والنبل؟ وماذا

تصنعون بالأسر النبيلة التي يُسليها جدها المائر إلى التدفُّور والخراب، وهو أمرٌ - كما تعلم - مألوفٌ كثيرُ الحدوث؟ وأى المزايا تشعرون فيمن ترشحونه لترتيب الأعيان؟ وهل تظنُّ أن للملك يدٌ في اختيارهم، وأن لأهواء الأمراء أثرٌ في تعيينهم - بما لديهم من مالٍ وقوْف - ليلقوا منهم حِزباً قوياً يؤيدهم وينصرُ سياستهم، ويحقق لهم ما تَصَبُّو إليه قوسهم من أمانٍ وأغراض، وإن عارض ذلك مصلحة الشعب؟ وما هو مبلغُ علمهم هؤلاء الأعيان بقوانين بلادهم؟ ولماذا حصصتموهم تلك الثقة العظيمة، وتركتم لهم القول الفصل، وجعلتموهم المرجع الأخير في أهمِّ شئون الوطن؟ أنظفون أنهم - لِنَاقِشَتِهِمْ وجاههم - قد خلعت قوسهم من الثواب والأغراض؟»

٩ - رجال الدين

ثم قال:

«وماذا ترى في علماء الدين؟ أتمدُّوهم قد وصلوا إلى مراكم في دار النياحة بما اقتازوا به من علم وفصل، وصلاح وقوى؟ وهل تظنُّ أن

إخلاصهم وقداستهم وطهارة قوسهم هي التي أكسبهم هذا المركز الرفيع ؟ وهل تصدق أنهم خلصوا من الضغائن ، وتجردوا من الأهواء والنقائص ، ولم يرتكبوا - منذ نشأتهم - شيئاً من جرائم البشر والدغاع والخيانة ، ولم يتلقوا أحداً من الأمراء والأعيان ، ليصلوا بذلك إلى أعلى مناصب الدولة الدينية ، حيث يرتقون إلى مجلس الأعيان ؟

١٠ - انتخاب الثواب

ثم سألتني عن مجلس الثواب ، فقال :

« وماذا ترى في المجلس الثاني الذي ذكرته لي ؟ أراض أنت عنه وعن طريقة انتخابه ؟ أليس من الممكن المحتمل أن ينجى رجل مجهول - وفي يده كيس مملوء ذهباً - فيشتري به أصوات ناخبيه ، فيكسب بالذهب ما لا يكسب بالمواهب والمزايا الباهرة ، ويفضله ناخبوه على منافيه الكفء الجدير بالنيابة عنهم ؟ ولماذا يتهاون مواطنوكم على الانتخاب ويتناخروا في سبيله . لولا يقنهم بأنهم - بعد أن يصحوا ثواباً - سيؤثرون من كل ما خسروه من المال في معركة الانتخاب ؟ ولا شك أنهم سيتناشون في

سبيل ذلك مصالح البلاد ، قَرَّباً إلى ذوى النفوذ والجاه من الأمراء والأعيان ومن إليهم ؟ »

وقد انساق في تعماد هذه الملاحظات القاسية وأمثالها ، واندفع بحيل - بلا روية - على نظمنا وتقاليدنا حلات قاسية ، وليس من العزم ولا من الخير أن أذكرها في هذا الكتاب !

١١ - دور القضاء



ثم انتقل إلى محاكنا فانتقدها ، وسألتني فيها ، وكما تشفق من الوقت في درس القضية والحكم فيها ؟ وكما تباغ نقات الدفاع ؟ وكيف يقبل الشحامون أن يدافعوا

عن قضايا خسرته يتصدون أنها لا تنفق هي والحققة ؟ وهل تتأثر هذه

المحاكم في أحكامها يجزب بعينه ؟ أو تخضع لرأي عظيم من ذوي
الثمور والجاه ؟ وهل يحتكم القضاء إلى نصوص القانون وحدها ؟ أو
يتأولون فيها وفق ما يروونه من شتى ضروب التفسير والتأويل ؟ وهل
تتفق أحكام المحاكم المختلفة في قضية بعينها ، أو تتناقض في
أحكامها ، لا اختلاف آراء القضاة ، وتباين الشروح والتأويلات الكثيرة
لنصوص القانون ؟

وقد كان في وسمى أن أفيض في الكلام عن المحاكم وأستح آراءه
فيها : قد خبرتها في قضية كتبها - بعد زمن طويل - وقفت في
المحكمة يعني ، وبما تكبدته في سبيل الحصول عليه من المال ، بعد أن
أشرفت على الخراب والإفلاس . ولكنني لم أرفأائدة في مناقشته ونصح
آرائه ، بعد أن وجدت إقناعه من المستحيل ...

١٢ - أموال الدولة

ثم انتقل إلى سؤال عن إدارة المالية ، قال :
« إنك - فيما يبدو لي - قد أخطأت في حسابك ، فإنك لم تقدر

الضرائب بأكثر من خمسة ملايين أوسنة ، على حين أنك تذكر لي أن
ما تنفقه الدولة يتجاوز بكثير دخلها الذي ذكرته لي ؟ ولست أستطيع أن
أذكر كيف تنفق الدولة كل دخلها ، ثم تخطي ذلك إلى الاستدانة
من غيرها ، كما يفعل الرجل المبدّر سواء بسواء ؟
ثم خبرني - أيها العزيز - من هم دائنوك ؟ وكيف تؤدّون لهم ديونهم
بعد أن خرجتم عن جادة القصد إلى الإسراف ، وبعد أن تمردتم على قوانين
الطبيعة ، وتخطّيت سبل الحكمة والسداد ؟ »

١٣ - نفقات الجيش

ثم أبدى لي دهشته مما سمعته متى في شأن الأموال الطائلة التي
أنفقتها في الحروب ، قال :

« لاشك أنكم متضاغون تنزعون إلى الشر ، أو أن جيرانكم أشرار خبثاء !
ثم خبرني : ما أنتم ومنازعات البلاد الأجنبية ومشكلاتها ، وهي لا تمس
إلّاكم بتسبب ؟ لعلكم تريدون أن يكون لكم - في خارج بلادكم -
صلات أخرى غير صلات التجارة ؟ وما أحسبكم إلا طامعين في الفتح

والنزوة؟ وما كان أجدركم أن توجهوا جهودكم كلها لإسعاد بلادكم، والدفاع
عن مرافقتكم، من غير أن تطلع قلوبكم إلى ما في أيدي غيركم من الأمور -
ثم خبّرتني - أيها الصديق - بعد ذلك : ما فائدة هذا الجيش الكبير
الذي تنفقون عليه في وقت السلم، ما دام شعبكم حراً راضياً عن حكمه
ونظمه وتقاليده ؟ وأي فخر لهذا الجيش ؟ ولماذا عينتم به ؟ وعمن يدافع ؟
وأي الأمر يحارب ؟ أليس من الغير أن يدافع سكان كل بيت عن
بيتهم ، وأن تشترك الأسرة ومَن في البيت من أولاد وخدم في حماية
أنفسهم ، فيكون ذلك أجدى عليهم ، وأغود بالفائدة من أن يكلوا حمايتهم
والدفاع عنهم إلى جماعة من الأوصياء والأشرار ، يؤثرون من خيانة
الشعب ودعائه ، ويتنازعون على حمايتهم أجراً زهيداً يُغريهم بالرشوة
والفساد : إذ يرون أن في وسعهم أن يذبحوا ويتركوا من ذلك مالا كثيراً
يُرَبِّي على ما يأخذونه من الأجر مائة مرق ؟ »

١٤ - ملاحظات عامة

ثم ناقشت فيما ذكرته له من اختلاف أحزاب الشعب ونزاعته

السياسية ، وتدور أحداثه ومطّيه ونجليه . وانتقل من ذلك إلى ما ذكرته
له من أساليب اللهو التي يقضي سراتنا وأعياننا كثيراً من أوقاتهم
فيها ، فقال :

« خبّرتني في أية سِن تبدأ ألعاب التراهنّة ؟ وفي أية سِن يُقلمون عنها ؟
وكم ساعة من الزّمن تسترق منهم كل يوم ؟ وإلى أي مدى تؤثر في
نروتهم ، وتبدّد من أموالهم ، وتدفع بهم إلى الصّاقة - يخطئ سريعة -
وتسوقهم إلى ارتكاب الذنبا والآثام ؟ ألت ترى أن كثيراً من الأديان
السّيلة الذين لا عمل لهم ، والذين فرغوا من مشكلات الحياة ، ورصدوا
أوقاتهم لهذه الألعاب ، يستطيعون أن يقيموا فيها ، فيجنوا بمهارتهم
وجذبتهم من هؤلاء الأغرار ثروة عظيمة تسلّكهم في عدا الأعيان
والسّبل ، وتجعلهم يحكمون في ساداتهم بعد أن يشرّفوا على الخراب
والافلاس ؟ ألا ترى أن من الحكمة وأسالة الرأي أن تقضي المولة على
بذل هذا اللهو الآثم المُرّ ؟ »

ثم انتقل إلى مناقشتي فيما سيمه من الحوادث المفزعة في تاريخ
القرن الماضي ، ودهش أشدّ الدهشة من تلك الثورات والفتن والمؤامرات ،

وما انتصت إليه من قتلٍ وتدميرٍ ، ونفىٍ وتغديرٍ . وقال لى :
« إنها دليلٌ على اللؤم ، والقسوة والحقد ، والطمع ، والجُنون ! »

١٥ - خاتمةُ المناقشةِ

وفى اليومِ التالى أَجْمَلَ جلائتهُ ما سَمِعَهُ مِنِّى ، وما قالهُ لى ، ووازنَ بينَ
أُسْلُوبِهِ وأُجُوبَتِي ، وكان مُسْتَسْكِنًا بِي بَدَنِهِ وهو يُدَاعِبُنِي وَيُلَاطِفُنِي . ثم
ختمَ محاضرتَه بهذهَ الكلماتِ القارِعَةِ الَّتِي لَا أُنَاسُهَا مَا حَيَّتْ ، وَلَا
أَتَى قَسْوَةً لِهَجَّتِهِ وهو يَنطِقُ بِهَا ، إِذْ قَالَ :

« قد مدحتَ وطنَكَ - يا عزيزى - مدحًا مُنْتَفِضًا ، وَفَضَّلْتَهُ عَلَى
كُلِّ الْبِلَادِ ، فَدَلَّكُنِي عَلَى أَنَّ الْجَهْلَ وَالْكَسَلَ وَالرَّذِيلَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَمُدَّ - فى
بَعْضِ الْبِلَادِ - مِنَ التَّزَايَا الْبَاهِرَةِ النَادِرَةِ الَّتِي يَمْتَازُ بِهَا السَّرَاةُ وَالْحُكْمُ ..
وَرَأَيْتُ أَنَّ الْبُتُونَيْنِ قَدِ انْتَضَعَتَا ، وَتَأَوَّلَ رَجَالُكُمْ فى تَسْبِيحِهَا مَا شَاءَ لَهُمْ
الْهَوَى وَالْقَائِدَةُ وَالْبَاقَةُ ؛ حَتَّى أَفْسَدُوهَا وَأَخْرَجُوهَا عَمَّا وَضَعَتْ لَهُ . وَقَدْ
عَلِمْتُ أَنَّ فى بِلَادِكُمْ نَظَامًا رُبَّمَا تَوْخَى بِهِ وَاضِعُهُ غَرَسًا نَبِيلًا ، وَلَكِنْ قَادَ
النُّفُوسِ قَدَبُ شَوْهَةِ كُلِّ التَّشْوِيهِ . وَقَدْ أَقْنَعْتُ - بِمَا سَمِعْتَهُ مِنْكَ - أَنَّ

الْقَضِيلَةَ عِنْدَكُمْ لَا قِيَمَةَ لَهَا ؛ فَإِنِّى لَمْ أَحِدْ مَرْيَّةً وَاحِدَةً مِنْ مَزَايَا الْفَضْلِ
تَرْفَعُ صَاحِبَهَا إِلَى آيَةٍ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الرَّفْعَةِ وَالشَّرَفِ . فَالْثَوَابُ لَمْ يَصِلُوا
إِلَى مَكَانَتِهِمْ مِنَ النِّيَابَةِ بِإِخْلَاصِهِمْ وَفَضِيلَتِهِمْ ؛ وَرِجَالُ الدِّينِ لَمْ يَزِنُوا
بِوَرَعِهِمْ وَزُهْدِهِمْ وَعِلْمِهِمْ ؛ وَالْجُنُودُ لَمْ يَسْتُوا بِشَجَاعَتِهِمْ وَإِقْدَامِهِمْ ؛
وَالْقَضَاةُ لَمْ يُدْرِكُوا مَنَاصِبَهُمْ بِجِدَارَتِهِمْ وَعَدْلِهِمْ ؛ وَالشُّيُوخُ لَمْ يَنَالُوا مَكَانَتَهُمْ
بِمَا أَثَرِبَتْهُ نَفُوسُهُمْ مِنْ حُبِّ الْوَطَنِ ؛ وَرِجَالُ الْحُكُومَةِ لَمْ يَظْفَرُوا
بِمَنَاصِبِهِمْ بِمَا أُوتُوا مِنْ دُرْبَةٍ وَحِكْمَةٍ وَتَجَرِبَةٍ ! »
ثُمَّ أَتَتْهُ حَدِيثُهُ قَائِلًا :

« أَمَا أَنْتَ - يَا عَزِيزِى - قَدْ قَضَيْتَ أَكْثَرَ حَيَاتِكَ فى التَّجَوُّالِ
وَالْأَسْفَارِ ؛ فَلَمْ تَسِرْ إِلَيْكَ - فِيمَا أَظُنُّ - عَدَوَى هَذِهِ النَّفَائِصِ وَالرَّذَائِلِ الَّتِي
انْفَسَسَ فِيهَا أَبْنَاءُ وَطَنِكَ ، عَلَى أُنْفَى - بَعْدَ مَا سَمِعْتَهُ مِنْ أَقْوَالِكَ ، وَمِنْ
إِجَابَاتِكَ عَنِ اسْتَلْتِى - اسْتَطِيعُ أَنْ أَقْرَرَ لَكَ مُتَعَبَاتًا مِمَّا أَقُولُ ؛ أَنَّ قَوْمَكَ
جَدِيرُونَ أَنْ يُوصَفُوا بِأَنَّهُمْ أَخْطَأُ أَنْوَاعِ الْحَشَرَاتِ الْعَقِيرَةِ الَّتِي تَدْبُ عَلَى
وَجْهِ الْأَرْضِ ! »

على مناقشات الملك، وتَحَيَّنْتُ أفرصَ للردِّ على أقواله، وسبَّرتُ مرتقبًا يومًا آخرَ يكونُ أكثرَ ملاءمةً لإزالة ما علقَ بنفسه من الأوهام والشُّكوكِ. وقد بذلتُ جُهدِي في إقناع ذلك الملك الذَّكيِّ الحَفيظِ، ولكنني - لِسوءِ الحظِّ - لم أشعرُ بشيءٍ من التَّجارج، بل أخفقتُ في غرضي كلِّ الإخفاقِ. على أنَّني التمسْتُ له شيئًا من العذرِ، لأنَّه إنما يعيشُ في عزلة تامَّةٍ عن العالمِ. فهو لذلك يجهلُ - بطبيعته - أخلاقَ الأممِ الأخرى وعاداتهم وتقاليدهم. وكثيرًا ما ينشأ عن العزلة والجهل بتقاليدهم الشعوبِ الخطأ في الأحكام، والاستسلامُ إلى الخيالِ والوهمِ.

ومن البلاءِ أن نأخذَ كلَّ اعتراضاتِ هذا الملكِ وانتقاداتِهِ وآرائِهِ في فهمِ الفضيلةِ والرَّذيلةِ أَسْأًا تَبَنَّى عليها نُظْمَتنا وتقاليدها؛ فهي آراءٌ بعيدةٌ عن الشَّجَرِيَّةِ والتَّعْجِيزِ.

والحقُّ أنَّ بينَ تفكيرنا وتفكيرِهِ هُوَّةٌ سحيقةٌ، فهو - بطبيعته نشائيَةٌ وعزليَّةٌ - يرى في كثيرٍ من قضايا الاجتماعِ والسَّياسَةِ عكسَ ما نرى...

٢ - اختراعُ البارودِ

وقد أدركتُ أنَّ أكيبَ عطفقه، وأنَّجَبَ إليه: فذكرتُ له مُخْتَرَعًا

الفصل السادس

١ - اعتراضاتُ الملكِ

يَأْتِي عَلَى إخلاصِي للحقيقةِ أن أكنتم ما جرى بيني وبين جلالَةِ الملكِ من الحديثِ، كما يَأْتِي عَلَى إخلاصِي لوطني أن أراه يحقرُهُ ويَزِدِّي به من غير أن أدافعَ عن شرفِهِ.

قد أَجَبْتُ عن أسئلتهِ بِهَمارِقٍ، ووصفتُ له كلَّ شيءٍ في بلادِي



بأحسن ما يَصِفُهُ به مُحبُّ لوطني، وتلستُ من مزايده وحسناته كلَّ ما استطعتُ. ولم يكن دِفاعِي عن وطني لينموني الإخلاصَ للحقيقةِ، والإيفاءَ إلى كلِّ رأيٍ صحيحٍ واسعِ المَحَبَّةِ. وعلى هذا لم أَشَأْ أن أغضِي

ظفرنا به - منذ أربعة قرون - وقلت له إنه مسحوق أسود تُلْهِبُهُ
شرارة صغيرة في لحظة، قَبَسِفُ - إذا شئت - جبالاً راسخة، وتَسْمَعُ
لقرعته دويّاً أشدَّ من جَلْجَلَةِ الرَّعْدِ. وذكرت له أنَّ من الميسور أن
يَصْغَ شيئاً من هذا المسحوق في أنبوبة - صغيرة أو كبيرة - من البرنز
أو الحديد، قَبَسِفَ ما أمامه، ولا يَصْدُقُ قُوَّتُهُ شَيْءٌ بالغة ما بلغت
صلابته. وذكرت له أنَّ بعض هذه القذائف تنكُّ بالجيوش الكثيرة
المدد، وتُدْكَ أقوى الحصون، وتَلْسِفُ أضخم البروج، وتُفَرِّقُ أكبر
السفن، وتدمر أعظم المدن. فإذا وُضِعَ هذا المسحوق في كرة من
الحديد، وقُدِّفَ بها الأعداء، فكثرت بهم فتكاً ذريعاً، ودمرت مساكنهم
وتناثرت شظاياها - في كل ناحية - فأهلك كل من أصابته،
وسحقت كل ما يَمُرُّ بِهَا في طريقها. وقد ذكرت له أنني جِدْتُ خبير
بأسرار هذا المسحوق وطريقة تركيبه، وأنَّ ذلك لن يكلفني أيَّ عناء؛ لأنه
يتألف من موادَّ معروفة يسهل الشُّرُوعُ عليها في كل مكان، وهي لا تكلف
مَنْ يَشْتَرِيهَا إلا ثمنًا قليلاً، فإذا أَذِنَ لى جلالتك، أَذَعْتُ له أسرارَ هذا
الاختراع؛ متى عَرَفَ جلالتك ذلك السرَّ أصبح قادراً على تدمير أقوى

المدن، وأمنع الحصون، وإخماد أية ثورة في زمن يسير، والتغلب على
الأعداء من غير مقاومة. وختمت كلامي بقول:
« وإلى مستدقِّ تقديم هذه الهدية الصغيرة إلى جلالتكم، اعترافاً مني
بما عَمَّرَنِي به من الرعاية والعطف العظيمين »

٣ - آراء الملك

وما سمع الملك هذا الحديث، حتى بدت على أساريره أماراتُ
الدَّهْشَةِ والعَجَبِ مما سَمِعَهُ من أسرار هذا المسحوق المدمر. وزاد
دهشته أنه لم يكن يدور بخلده أنَّ حشرة آدمية - غايّة في التجرُّ والصُّغَرِ
والخفارة - يمكن أن تتخلَّلَ مثل هذه المفزعات العظيمة، فتحدث
عن ذلك الحصون وتُسِفَ المدن - في سهولة وطُمأنينة وثقة إلى ما تقول -
ولا يُزَعِّجُهَا أن تذكر التدمير وتخريب البلاد والفتك بأهلها، لأنها
رأت - في كل هذه الشُّنُوعِ والمذابح التي تنجم عن هذا الاختراع
التهلك - شيئاً تافهاً لا قيمة له ولا خطر.
ثم قال لى الملك:

« لست أشك في أن مخترع هذا المسحوق المهلك هو روح شيرير
حيث لا ضمير له ولا دين . ولا أرتاب في أن الشيطان عدو الله هو
الذي ألهمه أن يخترع هذه المهلكات ! »

٤. — محبة الخير

ثم قال :

« إنني لا أطرب إلا للاختراعات النافعة التي قيد الجنس الإنساني ،
سواء أذهلت قوى الطبيعة وسخرتها لخير الإنسان ، أم عملت على رقي
أفئون وقدومها . وإنني لأؤثر أن أقيد ملكي وأنزل عن عرشى ، على أن
ألجأ إلى استعمال هذه الاختراعات المهلكة المشؤمة . فحذار حذار أن
يتكشف سر هذا الاختراع لأحد من الشعب ، فإنك — إن فعلت — فليس
لك عدو من جزاء — على إذاعة هذا السر — إلا القتل ! »

• • •

وقد عجبنا أشد العجب من إصراره ، وعدم تقديره فوائد هذه
الاختراعات التي أمكننا به التغلب على خصومنا بأيسر عناء . بيد أن

هذا الملك قد تحلى بكل الصفات المحمودة ، وتثبتت فيه بالخير
والرحمة ، فأحبه شعبه ، وأعجب بفضائله ، وأشاد بمزاياه ، وأكبر له
ذكاه وحصافته وحكمته وسعة علمه . وكان هذا الملك عادلاً محباً لتقدم
شعبه ورفقته ، قدسته الرعية كل التقدير . ولم يكن مثل هذا
الملك ليسرع إلى انتهاز الفرصة السانحة لإرهاق من يخافه أو يثور
عليه ، لأنه لم يكن يفتنه أن يصبح سيداً مستبداً مطلقاً التصرف
والسلطان في حياة رعيته وحريتهم ، ولكن يفتنه أن ينفعهم ويحبب لهم
السعادة والرفاهية والخير المقيم ، وإذا كان قد رفض الإصغاء إلى نصيحتي
فإن ذلك لا ينقص من فضله وذكائه ، ولا أحسب القارئ يخطئه في
ذلك ، فإن سياسة هذه الشعوب قائمة على الصراحة ، وهي لم تصبح
— كما هي عندنا — فناً يحتاج إلى طول الدرس والمرانة والخبرة . . .

وقد ذكرت له ذات يوم — في بعض حديثي — أن في بلادنا أشراراً
ضخمة كتبها مؤلفوها عن فن الحكم . وأساليب سياسة الشعوب ،
فاستنتج من ذلك أنا ضيف القول ، صيغار الأحلام ، واعتقد أننا أمم
غارقة في الجهالة والهمجية ، وقال لي :

« إِنِّي أَحْضَرُ الدَّسَائِسَ وَالْخِيَانَةَ وَالْجَاسُوسِيَّةَ فِي أَعْمَالِ الْمُلْكِ وَالِدَوْلَةِ وَالْوُزَارَةِ، كَمَا أَحْضَرُ أَنْ يَلْجَأَ الْحُكَّامُ إِلَى الْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ . »

ولم يستطع أن يدرك ما أعنيه بأسرار الدولة ، وما تنطوي عليه من سياسة ، وظن أننا نعني بذلك صناديق القضايا ، والأحكام التي لا حَظَرَ لها .
وقد قال لي ، فيما قال :

« إن الإنسان إذا استطاع أن يُنْبِتَ شُبُلَتَيْنِ مِنَ التَّمْرِ فِي أَرْضٍ لَا تُنْبِتُ إِلَّا شُبْلَةً وَاحِدَةً ، أَوْ قَدَّرَ عَلَى إِنْبَاتِ عُودَيْنِ مِنَ الشُّجْرِ فِي أَرْضٍ لَا تُنْبِتُ إِلَّا عُودًا وَاحِدًا ، فَهُوَ عِنْدِي رَجُلٌ مُنَافِعٌ ، جَدِيرٌ بِالتَّقْدِيرِ وَالثَنَاءِ ، لِأَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يُؤَدِّيَ لِبِلَادِهِ وَإِخْوَانِهِ خِدْمَةَ إِنْسَانِيَّةٍ عَظِيمَةٍ ، هِيَ أَجْدَى وَأَعْوَدُ بِالْقَائِمَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَا يَمْلِكُهُ رِكَازُ النَّاسِ ، وَأَسَاطِينُ السِّيَاسَةِ ! »

• - آدابُ المِلاحةِ

أما أدبُ هذا الشَّعبِ ، فهو أدبٌ ضَيَّلٌ ، وليسَ في لُغَتِهِمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ إِلَّا مَا يَدُلُّونَ بِهِ عَلَى الْأَخْلَاقِ وَالتَّارِيخِ وَالشَّرِّ وَالرِّيَاضَةِ ، وَمُجِيبُونَ هُنَا الْعُلُومَ الْأَرْبَعَةَ إِجَادَةً تَامَةً . وَلَا يُعْتَنُونَ بِالْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْفَلَسَفِيَّةِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ ، وَلَا تَتَجَاوَزُ حُرُوفُهُمُ الْهَجَائِيَّةُ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ حَرْفًا ، وَقَوَائِنُهُمْ مُجَمَّلَةٌ شَدِيدَةٌ الْإِيجَازِ وَاضِحَةٌ الْأَدَاءِ ، يَفْهَمُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ بِأَيْسَرِ نَظَرٍ وَأَدْنَى فِكْرٍ . وَمَ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى شَرْحِ قَانُونِهِمْ ، فَإِنَّ لِكُلِّ جَرِيْمَةٍ عِقَابًا لَا يَقْبَلُ تَأْوِيلًا وَلَا فِلْسَفَةً . وَلَيْسَ يَسْتَعِزُّمْ ذِكَاةُ نَادِرٍ .

أما الْمُطَابِعُ ، فَقَدْ اغْتَدَوْا إِلَيْهَا قَبْلَ عَهْدِ التَّارِيخِ - كَمَا اغْتَدَى إِلَيْهَا الصِّينِيُّونَ - وَلَكِنَّكَ لَا تَجِدُ عِنْدَهُمْ مَكْتَبَاتٍ كَبِيرَةً ، فَإِنَّ مَكْتَبَةَ الْمُلْكِ - وَهِيَ أَكْبَرُ مَكْتَبَةٍ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ - لَا تَحْوِي أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ سِفَرٍ . وَهِيَ فِي خِزَانَةِ طُولِهَا أَلْفُ قَدَمٍ وَمِائَتَا قَدَمٍ . وَقَدْ أَذِنَ لِي فِي أَنْ أَقْرَأَ مِنْهَا مَا أَشَاءُ . وَكُنْتُ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَقْرَأَ كِتَابًا ، أُرْجِلُهُ بَوْضِعِهِ عَلَى مَائِدَةٍ كَبِيرَةٍ ، فَأَقِفُ فَوْقَ صَفْحَاتِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَأَمْسِي عَلَيْهَا ثِمَانِي خَطَوَاتٍ أَوْ

عشرًا - على حسب طول سطره - فإذا انتهت من قراءة الصفحة،
رفعتها بيكنا يدي ليقال حجبتها، وثانيتها ورقها.



أما أسلوبهم في
الكتابة فهو واضح
سهل، لا تكلف فيه ولا
كيس، وم لا يُعنون
بالافتتان في الأداء، ولا
يلجئون إلى المترادفات،

ولا يُغيرون أساليبهم في التعبير، ولا يزيدون في كتاباتهم لفظاً واحداً
لا يحتاج إليه المعنى. وقد تصفحت كثيراً من كتبهم، ولا سيما كتب
التاريخ والأخلاق، وقرأت رسالة صغيرة قديمة - كانت في غرفة
العائنة - عنوانها:

« رسالة في صف الجنس الإنساني »؛ وهذه الرسالة دائمة مشهورة
في تلك البلاد، تُقبل على قراءتها النساء وعامة الشعب.

٦ - فصل من كتاب

ولقد شافني أن أقرأ فصلاً من هذا الكتاب الذي ألفه أحد هؤلاء
المعالم في إظهار ضعف الجنس الإنساني وعجزه؛ فرأيت المؤلف يدلل
فيه على عجز الإنسان وحقارته - أمام سلطان الطبيعة وبقوتها، وقوة
الحيوانات المفترسة وبقوتها - بأن بعض الحيوانات يقوّه قوّة وسرعة،
وبعضها يقوّه ذكاء ومهارة وحسن نظام.

وقد رأيت المؤلف الكتاب يميل إلى الحكم بأن الطبيعة قد فسدت في
القرُون الأخيرة، وأن العالم سائر إلى الضعف والانحلال؛ لأن قوانين
الطبيعة - في زعمه - كانت تقضى بإيجاد الأجناس البشرية القوية،
ذات الأجسام الضخمة والقامات المرتفعة، وكان الناس منذ بدء الحياة في
القرُون القليلة أقوى وأسحاء، وكانوا - لقوتهم وصحتهم - آمنين من
الأخطار والتغيرات الجبائية التي كثيراً ما أودت بنا لضعفنا وصالّة أجسامنا.
ثم يقول: « أما نحن ضاية في الضعف، وإن حجراً من الآجر يلقى
علينا من أعلى منزل - أو يذفنا به غلام صغير - لا يلبث أن يودي

بِحَيَاتِنَا ، وربما غرق أحدهما - لضآلته - في نُهَيْرٍ . وقد استنتج المؤلف من ذلك الضعف عدة قوانين رآها نافعة للسير في هذه الحياة باعتدالٍ .

٧ - حكمة الإنسان

أما أنا فقد غرقت في بحرٍ من التفكير ، وطافت بذهنِي شتى المعاني والبطآت ، حين رأيتُ جميعَ الناسِ يَنْزِعُونَ بطيهم إلى الشكوى مِنَ الطلعة ، وَيَمْرُؤُونَ إليها أَكْثَرَ السَّيَّاتِ والمُيُوبِ ، وَيَحْمِلُونَ الزَّمَنَ أَوْزَارَ مَا يَتَلَمَّونَ منه .

وذكرتُ أَنَّ هؤلاء المماقة - على ما وصلوا إليه ، من ضخامة وقوة - لا يزالون يجدون أنفسهم صغاراً ضعافاً . فكيف بأمثالي من بني الإنسان الذين لا يَمْلَأُونَ إلى هؤلاء المرددة ؟ ورأيتُ ذلك المؤلف يقول :

« إن بني الإنسان ليسوا إلا حشراتٍ ضئيلة على وجه الأرض ، ودينانا لا خطر لها ، وليس الإنسان في هذه الدنيا إلا ذرةٌ حقيرة ، غاية في الضئيل والمهوان . »

فانتللتُ نفسِي حزناً وأسفاً حين قرأتُ هذا الكلام ، وقلتُ لنفسي :

« وأسفاً علينا ! إذا كان هؤلاء المماقة الجابرة يرونُ أنفسهم غاية في القماعة والضعف ، فكيف بنا ولنا شيئاً مذكوراً بالقياس إلى هؤلاء المرددة ؟ »

...

وقد عرض المؤلف الكتاب للكلام في الكبرياء والزهو ، وأنهى باللامعة على الناس لولوعهم بالأوصاف الفارغة ، وتهافتهم على أن يوصعوا بأقارب السمو والمظلمة ، ورأى أن من المحزن المؤلف أن يفخر إنسانٌ ضئيلٌ - من بني جنسه - بهذه الألقاب ، وهو لا يزيد في طوله على مائة وخمسين قدماً ، وأن يُدَلَّ بطوله وضخامته ، وهو لا يزال قزماً ضئيلاً . قلتُ في نفسي : « إذا صدق هذا المؤلف في قوله ، فإذا يقولُ أُرَؤُنَا وعظمائُنَا إذا قرأوا هذا الكلام ؟ وماذا يسمنون ، وهم لا يزيدون - في ارتجاع قلماتهم - على خميس أقدامٍ ويضع أَسَابِجَ . ثم تتلخَّ قوسهم إلى أقارب السمو والمظلمة ؟ ولستُ أدري لماذا لا ينشدون ألقاب الضخامة والترصيص والكثافة ؟ ولعل أحدهم يجيبُ على اعتراضِي بأن السمو والمظلمة خاصان بالروح لا بالجسم . فإذا صَحَّ قولهم هذا ، فما

بأنهم لا يَتَخَيَّرُونَ لهم ألقاباً صريحة في أداء هذه المعاني بجلالة ووضوح ؟ وما بأنهم لا يقولون : « صاحب الحكمة ، صاحب الذكاء ، صاحب البصيرة ، صاحب الكرم ، صاحب الطيبة ، صاحب الصميم » بل قولهم : « صاحب الرياسة ، والعظمة ، والقناعة » وما إلى تلك .

يجب أن نترَف بأن تلك الألقاب أجمل وأشرف من هذه ، وفيها رقة ولطف إذا حيوا بها بمن هم دونهم مقاماً . أما أن يصغوا أنفسهم بالرفضة والسمو والعظمة ، وم على مثل ما ترى من ضعف وضآلة ؛ فذلك تناقض مضحك عجيب !

٨ - نظرة عامة

أما علوم أولئك المعاقلة في الطب والجراحة والصيدلة ، فقد برعوا فيها بمقدار يناسب حاجات البلاد . وأما جيشهم فهو مؤلف من اثنين وثلاثين ألفاً من القُرسان ، وم من التجار والفلاحين ، وقوادهم من النبلاء والأعيان . وم لا يتقاضون على ذلك أجراً ، فإن كلاً منهم منصرف إلى عمله ، وكل فلاح تحت إمرة أحد الأعيان ؛ فإذا جدَّ الجَدُّ ، جند منهم جيش يبلغ هذا العدد .

وقد عَجِبْتُ لماذا يُعْنَى الملك بتدريب هذا الجيش على الحرب وهو آمن من غارات الأعداء . ولكنني - بعد أن درست تاريخهم - عَلمْتُ أن هذا الشعب لم يَسَلَمْ - فيما مضى من الزمن - مِمَّا أَصِيبَ به غيره من الشعوب الأخرى ، أعنى الحرب الأهلية ، وتنازع الأعيان والنبلاء على الحكم ، وتطلُّع الشعب إلى الحرية ، ورغبة الملك في الاستئثار بالحكم والسلطان .

...

على أن قوانين المملكة الحكيمة ، وتقديس الشعب لملكه القائم قضيًا على هذه القِيَمِ الباطنية ، وأصبحت البلاد في أمان من المنازعات المقلقة والاضطرابات العنيفة .

البلاد، لأنَّ نسل ذرية من أبنائى، نوضَّع في الأخصاص كما وضَّع المصافير،
ثم تساع بدئاً في أنحاء المملكة للشراف والأعيان، كما تباع الطرف
والحيوانات الصغيرة المربية ! ولقد كانوا - في الحقيقة - ياملونى أحسن
معاملة، وقد اختارونى نديماً للملك والمملكة، وكنتُ في هذه البلاد
بوجهة العاشية والشراف. ولكنى كنت أشعر أن هذه الحفاوة كلها لا ترضى
نفس رجل يشعر أنه إنسان مستقل حر له كرامة، ولم أكن لأتسى
أفلاذ كيدي وزوجتى بعد أن تركتهم في بيتى الثانى البعيد. وكان أكبر
أمانى أن أعيش في شمس يمانلى وأمانلى، وأجد فيه أصدقائه وخلفاء من
أندادى وأقرانى، وأظفر بحرَّيتى كاملة في التجوال - في الطرق والحقول -
بلا رعية ولا حذر. ولا كذلك كنتُ في تلك البلاد التى ظلمتُ أتوقَّع فيها
- بين لحظة وأخرى - أن يسحق أحد أبنائها المقاتلة بقدميه، كما
تسحق الحشرة الوضيعة الضئيلة، دون أن تشعر بمكانها من الوحود !

٢ - مرعجات « بربدنجاج »

وقد كان من الميسور المحتمل أن أقضى حياتى في تلك البلاد، لولا

الفصل السابع

١ - ذكريات الوطن

كان يدور بخيلى دائماً شعور خفى، يوحى إلى أنى سأحصل - في
يوم من الأيام - على حرَّيتى، وأعود إلى وطنى. ولم أكن أعرف ما هى
الوسيلة إلى تحقيق هذا الحلم اللذيذ، وقد طالما فكرت في ذلك، فلم أجد
من تكبرى بباطل، وأخفقت في الاعتماد على تدبير تلوح لي فيه أية بارقة
من يوارق الأمل في الخلاص من تلك البلاد.

وقد كنت على ثقة من انقطاع هذه الجهة التى نزلتها عن بقية العالم.
كما كنت على يقين من أن أول سفينة اقتربت من تلك البلاد، هى
سفينة التى غرقت - فيما اعتقد - بالقرب منها.

وقد أصدر الملك أمره بمراقبة أى سفينة تدنو من شواطئ بلاده،
وإحضار من فيها من الناس إليه، لعله يسأ - من بينهم - على زوجة
صالحة لي. أما أنا فقد كنت أؤمِّر أن أموت على أن أزوح في تلك

قَمَاءَتِي وَقَصَّرُ قَامَتِي ، وما جرَّه ذلك على من الأخطار والمخاوف التي
يضيقُ عنها الوصفُ ، والتي لا أعددُها ، بل أعدُّ منها ما حدث لي ذات يومٍ
مع قَزَمِ الملكة ، قبل أن يحلَّ عليه غضبُها ويقبضَها . قد التفتُ به
في حديقة القصر الملكي ، بالقرب من شجرة تفاح صغيرة . وما وضعتُني
الحاضنة على الأرض ، حتى أقبل على ذلك الخيثُ يحثيني سحرًا من
قَصَّر قَامَتِي ؛ فتابلتُ سُخْرِيته بمثلها . فأسرَّها في فيه ؛ وما بعدتُ
الحاضنة عني قليلًا حتى انتَهَرَ القَزَمُ الخيثُ تلك القرصة ، وهَرَّ
عُصًا من أغصان تلك الشجرة ؛ فتأثر تفاحه على الأرض ، وسقطتُ
على عشرُ تفاحاتٍ - في مثل حجوم البراميل - فكادت تقتلني قتلاً .
ولكنني تجلَّيتُ أمامه ، وعدتُ على نفسي باللائمة ، وعزمتُ على ألا
أمازحه بعد ذلك اليوم .

• • •

وتساقط البرد - ذات يوم - وأنا جالس في الحديقة ، وكانت
الحاضنة تحدثُ إحدى رفيقاتها ؛ فهويتُ إلى الأرض وأنا بين الحياة
والموت . ولولا أنهم أسرعوا بنقلني إلى الفراش لأصبحتُ في عدادِ

الهالكين . على أنني تماثلتُ من المرض بعد ثمانية أيام .
وقد كان كلُّ شيء - كما أسلفتُ - مناسباً سكان هذه البلاد . وقد
وَزَنْتُ حَبَّةً واحدة من حبات البرد المساقطة ، فرائيتها أكبر من حبات
البرد التي نراها عندنا الآنًا وثمانمائة مرة .

٣ - في قَمَرِ كَلْبٍ

وما أنسَ لا أنسَ
يومَ تَرَكتُني الحاضنةُ
في الحديقة لأنزلة
وحدي ، وأخلو إلى
قسي ، وكانت تأنسُ
مني - في أغلبِ
الأحيان - مبتلاً إلى
الخزلة والصكبر .
وما تَرَكتُني



في الحديقة - بعد أن وثقت أنها قد خلقتني في مكان أمين - حتى لقيت
 كلب صغير . وما شئ رائحي - من بيد - حتى أسرع إلى ،
 فأخذني في فيه ، وجرى مسرعاً إلى صاحبه البستاني ، ووضعني أمامه ،
 ووقف يميني (يحرك ذنبه) . وكان البستاني يرفني ، فأسرع
 إلى يلاطني ويواسيني ، ويسألني : كيف أجدي ؟ وهل أصابي سوء ؟ ولم
 يكن في قدرتي أن أجيبه - وقتئذ - قد أغشى علي ، ولم أفق من غشيتي
 إلا بعد دقائق . وما أطمأن على سلامتي حتى حملني مترقفاً إلى حيث
 كنت ، فرأيت الحاضنة تبحث عني وتناديني ، وقد امتلأت قلبها حزناً
 والمآحين عادت إلى مكان فلم تجدني فيه . فلما حدثها البستاني بما جرى لي
 راحت تنهال عليه لوماً وقرصاً لما سببه لي كلبه من الأزعاج والألم .
 وقد قبلت عذر البستاني - بعد حوار طويل - ووعده بأن تكتم
 الحادث المشؤم عن الملكة ، حتى لا تنزل به عقابها الصارم !

٤ - خواطر مؤلمة

وقد آلت الحاضنة على نفسها ألا تعارفت لحظة واحدة حتى لا أمرض

لمكروو بعد ذلك اليوم . وقد طالما خشيت منها هذا الضيق الشديد على
 حررتي ، فكنتها أكثر ما وقع لي من الحوادث . ولست أنسى أن جملاً
 (وهو صنف من الخنايس) حاول أن يتلصق بي ، فلم يتخذني منه إلا حضور
 بدني ؛ إذ أسرع إلى شجرة متدلية أغصانها على حائط الحديقة ،
 فاختصت بها ، وأخرجت مدتي ، لأدفع أذاه عن نفسي .

وما أنسى أنني هويت - ذات يوم - في جحر جرذ (وهو نوع من
 القار) ، فوسستني إلى عنقي ، ولم أخرج منه إلا بعد عناه شديد .

وكنيت أفكر في وطني - ذات يوم - وإني لغارق في ذكرياتي
 وخواطري ، إذ اغترصتني في طريق قشرة شجرة ، فكلت تقضي علي .

وكانت الطيور تهزأ بي - لضائتي وقماتي - ولا تخشاني . وقد بلغ مني
 استغنائها بي ، أن عصفوراً وقعاً خطف من يدي قطعة من الحلو كبت
 آكلها ! وكنيت إذا حاولت أن أدن من تلك الطيور لأقبض عليها الفتت
 لي ، وحررت متابعها منذرة موعدة لئلا أن تقتك بي ، ثم سارت في
 طريقها وادعة تلغط ما شئت من الدود والحب .

على أن الله - سبحانه - قد كتب لي الخلاص من هذه البلاد بسرعة عجيبة ، ويسرّ لي عنايته أن أعود إلى وطني بطريقة لا تخطر على بالي ، كما سيَرى القارئ فيما بعد .

لقد مضى على عامين ، وأنا في تلك البلاد . وفي مُستهلّ العام الثالث خرجتُ مع العاضنة والهاشية - في صحبة جلالتيّ الملك والملكة - إلى سياحة في الحدود الجنوبيّة للمملكة . وقد حلوني في التلّبة التي كانوا يُعدّونها لأسفاري ، وهي حجرة ثلاثيّ كلّ التلاسة ؛ عرضها اثنتا عشرة قدماً . وقد طلبتُ إليهم أن يشدّوني بأربعة خيوط من الحرير إلى أركان الحجرة الأربعة ؛ حتى لا أشعرُ باهتزاز واضطراب في أثناء سُرّ الجواد ، الذي كان يمتطيّه أحدُ الخدم . ووضعتُ عليّ أمانته مُحافَظةً على .

وقد طلبتُ إلى النجّار أن يصنع لي قُبّاً صغيراً في سطح عُلبي بمقدار قدمٍ مربّعة ؛ لينفذَ إلى الهواء منه ، وليتسنى لي أن أفتحَه وأغلِقَه بمصاى كلما أردتُ .

وما وصلنا إلى نهايةِ سياحتنا ، حتى رأى الملكُ أن يقضى بضمة أيامٍ متزجّهاً في مدينةٍ من مدنيّ بلاده ، تقع على مسافةِ ثمانية عشر ميلاً من شاطئ البحر . ولقد جَهدتُني هذه السياحةُ ، وجهدتُ معي العاضنة . وقد أصيبتُ برُكامٍ خفيفٍ ، كما انحرفتُ صِحّةُ العاضنة المسكينّة ؛ لقد كانت مضطّرةً للبقاء إلى جانبي ، والسهر على راحتي ، والعيّنة بأمرى دائماً . واشتد شوقى إلى رؤيةِ البحرِ ؛ فظاهرتُ بأن وطأةَ العرض قد اشتدت بي ، ولم أقصدُ بذلك إلا أن يؤدّن لي بانشتاقِ هواء البحرِ مع خادم كانوا يهدّون إليه بأمرى في بعض الأحيان . وكنتُ آتسُ إليه ، وأراحُ إلى خُلّتي .

ولستُ أنسى معارضةَ العاضنة في ذلك ، وكيف تألّمتُ لفرّاق أحدِّ الأهل ، ولم ترّضْ بذلك إلا بعد أن أوصيتِ الخادم بي ، وألحّت عليه في العناية بأمرى . ولما وقفتُا للوداع همتِ الشموعُ من عينها ، وكأننا أحسن قلبها شراً مُستظيراً ، أو لعلّها شعرت في أعماقِ نفسها أنها لن تراه بعد ذلك اليوم .

« وللنفسِ حالاتٌ تُرَبِّها كأنَّها تُشاهدُ فيها كلَّ غَيبٍ ستَشهَدُ »

٧ - على شاطئ البحر

ثم جلنى الخادمُ فى عُلى، وسار بى نحو نصف ميل، ببدأً عن القصر الملكى المشيد فى تلك المدينة، ومضى صوب الصُخورِ على شاطئ البحر. فطلبتُ إليه أن يضعنى على الأرض، ثم فتحتُ إحدى نافذتى، وأخذتُ أُجِلُّ بصرى فى أرجاء البحرِ بعَيْنٍ مُفَرَّوْقَةٍ بالدُّمُوعِ، وقسِ كَثِيبةٍ محزونةٍ. ثم رأيتُنِ فى حاجةٍ إلى النوم؛ فطلبتُ إلى الخادم أن يُغلقِ النافذةَ حتى لا أُصابَ ببردٍ. وقد استسلمتُ لنومٍ عميقٍ، ولستُ أدري



ماذا صنع الخادمُ
بعد ذلك . وللهُ قد
اطمأن إلى أننى فى

مكانٍ أمينٍ، ووثقُ بأننى لن أُصابَ بسوءٍ؛ فراح يتسلَّقُ الصُخورَ باحثاً - فى أوْكارِ الطيورِ - عن أفراخها وبَيْضِها، وقد كنتُ رأيتُهُ من خِلالِ نافذتى بعلُ ذلكَ قبلَ أنْ أنامَ .

٨ - فى أنوارِ القِصَّةِ

ثم استيقظتُ بَنَتَهُ، وقد شمَرْتُ أن عُلىنى نهْراً اعتزازاً عَظِيماً، وترنَّعُ إلى عُلى شاهِقٍ مُندفَعَةٍ إلى الأمامِ بسرعةٍ لا مثيلَ لها . وشمَرْتُ أن الرِّجَّةَ الأولى كادت تَهْدِفُ بى من العلبةِ التى كنتُ فيها، ثم خَفَّتِ الحركةُ قليلاً قليلاً؛ فصرختُ بأعلى صوتى، ولكنَّ صُراخى ذهبَ أذْراحَ الرِّيحِ . ونظرتُ من خِلالِ نافذتى، فلم أرَ غيرَ الشُّجْبِ - الشُّجْبِ وحدها - وسمعتُ ضَجَّةَ مُفَرَّعةٍ فوقَ رأسى، تماثلُ خَفَقَ الأجنحةِ . وثمةَ أدركتُ حَرَاجَ مركبى، وعلقتُ مَدَى الخطرِ الذى أنا مستهدفٌ له . وأُلقِىَ فى رُوعى أن نَشْراً كبيراً - من سُورِ تلك البلادِ - قد حلَّ الثَّلْبَةَ بِمِيقَانِهِ . وهو يوشِكُ أن يُلقِىَ بها من حَاقِقِ إلى الصُخورِ - كما تُلقِى السَّلْحَاءُ قَشَرَهُ من فيها إلى الأرضِ - ثم يفرسُنِ بعد ذلك . ولقد كنتُ أعرفُ هَذَا الطائرَ، وما أُوهِبَهُ الله من حَاسَةِ الشَّمِّ القويَةِ التى تَهْدِيهِ إلى فريستِهِ على مسافةٍ بعيدَةٍ؛ فأدركتُ أنه اهْتَدَى إلى، مع أننى كنتُ مخضِباً عن ناظرِهِ تحتَ ألواحٍ مِنَ الخشبِ، ثخانةُ كُلِّ لَوْحٍ منها إصْبَعَانِ . وبعدَ

وقتٍ صَبرٍ شَرتُ أن حَقَّقَاتِ جَنَاحِيهِ بِدَأْتِ تَرْدَادُ وَتَشْتَدُّ ، ثُمَّ سَمِعْتُ
ضَرْبَاتٍ عَنِيفَةً ، وَرَأَيْتُ عُظْبِي
تَرْتَظِمُ - فِي عُظْبٍ وَهْدَةٍ -
فَأَدْرَكْتُ أَنِّي هَوَيْتُ - فِي أَقْلٍ
مِنْ دَقِيقَةٍ - بِسَرْعَةٍ لَا تُعْرَى
بِخَاطِرٍ .



وَشَرتُ - فِي أَتَاءِ
سُغُوطِي - بِهَرَمَةٍ عَنِيفَةٍ رَنَّ دَوْبِيهَا
فِي أَذُنِي ؛ فَخَجَلْتُ إِلَى أَنِّي أَسْمَعُ
دَوْبِيًّا أَشَدَّ مِنْ دَوْبِي الشَّلَالِ ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فِي ظِلَامٍ حَالِكٍ مُدَّةَ دَقِيقَةٍ
أُخْرَى . ثُمَّ ارْتَقَمْتُ عُظْبِي ثَانِيَةً ؛ فَرَأَيْتُ ضَوْءَ النَّهَارِ مِنْ أَعْلَى نَافِذَتِي ؛
فَأَدْرَكْتُ - حِينَئِذٍ - أَنِّي قَدْ هَوَيْتُ إِلَى الْبَحْرِ ، وَأَنَّ عُظْبِي سَابِغَةٌ
تَقَادُضُهَا الْأَمْوَاجُ الْمُضْطَلِبَةُ ، كَأَنَّهَا رِيْشَةٌ مَمْلُوءَةٌ فِي سَهَبٍ رِيْعٍ عَاصِفٍ
هُوَاجٍ .

وَدَارَ بِخَلْجِي أَن تَسْرِعَ بِي أَوْ تَلَاثَةً قَدْ تَقَبَّأَ - فِيمَا أَظُنُّ - النَّسْرَ الَّذِي

كَانَ يَحْمِلُ عُظْبِي ، فَنَلَّاهُ عَلَى أَمْرِهِ ، وَشَفَّلَاهُ بِالذَّفَاعِ عَنْ قَبْرِهِ ، فَاضْطَرُّوا إِلَى
تَرْسِيٍّ ، وَلَمْلَمْنَا كَأَنَّا يُحَاوِلَانِ اخْتِطَافِي مِنْهُ . فَلَمَّا هَوَيْتُ إِلَى الْبَحْرِ كَادَتْ
عُظْبِي تَفْجُكُ ، لَوْلَا الصَّنَائِجُ الْحَدِيدِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ لَهَا خَيْرٌ سِيَاسٍ ، فَتَحَنَّنَتْ
تَوَازُّهَا ، وَحَالَتْ دُونَ تَكْسِيرِهَا وَتَحْطِيمِهَا بِدَسْخُولِهَا مِنْ ذَلِكَ الْإِزْتِاجِ
الشَّاهِقِ .

أَو ! لَوَدِدْتُ - حِينَئِذٍ - أَنْ عَزِزَتْني الْحَاضِنَةُ الْمَخْلُصَةُ كَانَتْ إِلَى
جَنْبِي لِتُسَاعِدَنِي عَلَى الْخُلَاسِ مِنْ هَذَا الْحَادِثِ الْمَغَاجِ . وَلَمْ يُفَيْسِي مَا أَنَا
فِيهِ مِنْ شَقَاءٍ ذِكْرِي هَذِهِ اقْتِنَاؤُ الْمَخْلَصَةِ ، وَأَسْنَى عَلَى فِرَاقِهَا ، وَعَلَى
مَا يَنْتَابُهَا مِنَ الْحَزَنِ الْعَمِيقِ حِينَ تَفْقِدُنِي فَلَا تَرَانِي أَمَامَهَا !
وَفَكَّرْتُ مُزْنَ الْمُسْكَنَةِ عَلَى فِرَاقِي ؛ فَخَافْتُ لِذَلِكَ أَشَدَّ الْخَافِرِ . وَإِنِّي
لَمَلِي يَمِينٌ مِنْ أَنْ قَلْبِي لِي جَدًّا مِنَ السَّاحِلِينَ قَدْ وُجِدُوا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَازِقِ
الْحَرَجِ الَّذِي وَجِدْتُ فِيهِ . وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَحْطُمَ عُظْبِي بَيْنَ لَحْظَةٍ
وَأُخْرَى ، أَوْ تَقْلِبَ بِي لِي عَلَى الْأَقْلِ - إِذَا عَنَفَتْ بِهَا الرِّيحُ ، أَوْ طَلَى
عَلَيْهَا الْمَوْجُ .

ولقد كسرتُ لَوْحًا رُجائِيًّا من ألواحِ التافنقِ - غيرَ عامِدٍ - وأصبحتُ
نَهَبَ الحوادثِ . ولم يبقَ لي أملٌ في النجاةِ لولا تلكَ العمدةِ الحديديةُ ،
المثبتةُ بها النافذةُ مِنَ الخارجِ . ورأيتُ الماءَ يَفْضُ إلى عُليّ من خلالِ
بعضِ الشقوقِ ، فبذلتُ قُصارى جُهدِي في سدِّ كلِّ مُفَرِّقٍ وجدتها . ولشدةِ
ما أَسِفْتُ على أنْ لم يكنْ في وُسى أنْ أرفعَ سطحَ عُليّ لأجلسَ فوقها ،
بدلاً من بقاى في داخلها كالنبي محبوبٍ في قاعِ سفينةٍ .

وإني لَتَأْرَقُ في هذهِ التأمّلاتِ والمخاوفِ ، إذ حِيلَ إلىَّ أنْني أسمعُ
حركةَ بالقربِ من عُليّ ، ثم حِيلَ إلىَّ أنَّ العلبةَ تُجَرُّ إلى ناحيةٍ بعينها .
وكنْتُ - بينَ وقتٍ وآخرٍ - أَشْعُرُ بأنَّ الأمواجَ تَرْتَفِعُ أحياناً إلى أعلى
نافذتي فأصبحُ في ظلامِ حالكٍ . هَرَفْتُ في نَفْسِي أنَّ أناساً فَرِيقَيْنِ مني يحاولون
إِقْناذِي ممَّا أَنَا فيه ؛ فوهتُ على كرسِيٍّ فوقَ كرسِيٍّ . ورفعتُ رَأْسِي إلى نُفْرَةٍ
صغيرةٍ في سَطْحِ عُليّ ، وصيحتُ طالِباً النجدةَ بكلِّ لَفَةٍ أَعْرِفُهَا .

ثم شَدَدْتُ مِنْدِيلِي إلى عَصَايَ ، وأخرجتُهُ من الثُغْرَةِ ، وحَرَكَتُهُ في
الهواءِ عدةَ مرَّاتٍ ؛ لعلَّ السفينةَ - التي أَخْلَعْتُها قَرِيبَةً مِنِّي - تراه فَصَرَفَ
أَنَّ في تلكَ العلبةِ إنساناً تَمَسَّ بِبِنْيِ القَوْتِ والنَّجاةِ . وَكَذْتُ أَنِّي لَسْتُ مِن
الخلاصِ وَأَكْفُ . عن النِّداءِ ، وَلَكِنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّ عُليّ تَقْدُمُ إلى
الأمَامِ ؛ فهاوَدَتِ الأملُ . وبعدَ ساعةٍ قَرِيباً شَعَرْتُ أَنَّها قد صُدِمَتْ بشيءٍ
صُلْبٍ ، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ قد صُدِمَتْ بصخرةٍ في طريقها ؛ فَاسْتَوَلَيْتُ على
الرُّعْبِ والإثْرَاجِ . ثم سمعتُ حركةً واضحةً - فوقَ سَطْحِ عُليّ -
وَأَحْسَسْتُ أَنَّ حَبْلًا نَوْبًا يَجْرُها ، وَهي تَرْتَفِعُ شيئاً فشيئاً من مكانها نحوَ ثلاثةِ
أقدامٍ . فَرَفَعْتُ عَصَايَ وَمِنْدِيلِي مُلَوَّحًا بِهَا في الفضاءِ ، وَصَرَخْتُ - بأعلى
صوتِي - طالِباً القَوْتِ والنَّجدةَ ، حَتَّى بَلَغَ صوتِي ؛ فَسَمِعْتُ هَتَافًا يَتَوَدَّدُ ،
فَأَسْتَأْذِنِي سُرُوراً لَيْسَ في قدرتي أَنْ أَسْفَهُ لِفَارِي ، وَلَيْسَ في قدرةِ إنسانٍ
أَنْ يَسْتَعْلِلَ لِهَذَا السُّرُورِ إِلَّا إِذَا تَخَيَّلَ نَفْسَهُ مَكَانِي
وَقَدْ سَمِعْتُ - بعدَ ذَلِكَ - حَقَقَ أَقدامُ على السَّطْحِ ، وَطَرَقَ أَذُنِي

صوتُ رجلٍ يناديني بِلُغَتِي مِنَ الثَّغَرِ قَائِلًا : « هل هنا أحدٌ ؟ »



فأَجَبْتُهُ مِنْ قَوْرِي : « نعم
— بكلِّ أَيْفٍ — يا سَيِّدِي ،
هنا إنسانٌ تَعَيَّنَ مَسْكِنُهُ ، أَشْهَدُ
بِجَدِّهِ الْعَائِرُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ
الْمَحْزَنَةِ ، وَهُوَ يَضْرَعُ إِلَيْكَ أَنْ
تُنْقِذَهُ مِنْ هَذَا السَّجْنِ ! »
فَأَجَابَنِي الصَّوْتُ :

« لا عليك يا أَخِي ، فاطْمَئِنَّ ،

قَدْ شَدَدْنَا صِدْقَكَ إِلَيْنَا ، وَاسْتَدْعَيْنَا النَّجَارَ لِقِطْعِهِ ، وَإِخْرَاجِكَ مِنْهُ .
... قُلْتُ : « وَقَدْ نَسِيتُ أَنْتِ لَسْتُ فِي بِلَادِ الْعِمَاقَةِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ هَذِهِ
الْحِجْرَةَ بِأَصْبَعٍ وَاحِدَةٍ :

« لا حاجةَ إِلَى هَذَا الْمَاءِ كُلِّهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَفْرِقُ وَتَحْتَ طَوِيلًا .
فَلْيَتَقَدَّمْ أَحَدُكُمْ ، وَلْيَصْعَقْ بِمِصْبَعِهِ فِي الْجَبَلِ ؛ فَيَرْفَعِ الثَّلْبَةَ مِنَ الْبَحْرِ
إِلَى السَّفِينَةِ بِالْمَعْدَلِ . »

وَمَا سَمِعُوا ذَلِكَ ، حَتَّى ضَحِكُوا مَا سَمِعُوا ، وَقَدْ حَبِلَ إِلَيْهِمْ أَنِّي مَعْتَوِدٌ
لَا أَقْنَعُ مَا أَقُولُ !

وَمَا كُنْتُ أَحْسَبُ — خَيْثَرُ — أَنِّي بَيْنَ رِجَالٍ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِي فِي مِثْلِ
ضَلَالَةِ جِنْسِي وَفَضَرِ قَامَتِي . ثُمَّ جَاءَ النَّجَارُ — بَدَأَ دَقَاقَ قَلِيلَةٍ — فَفَتَحَ
ثُغْرَةً فِي أَعْلَى الثَّلْبَةِ ، غَرَسَهَا ثَلَاثَةُ أَقْدَامٍ ، وَأَذَلَّ إِلَى بَسْمَلِهِ صَغِيرٍ ،
فَصَحَبْتُ فِيهِ : وَمَا وَصَلْتُ إِلَى السَّفِينَةِ حَتَّى كَانَ الضَّغْفُ وَالْإِعْيَاءُ قَدْ
بَلَغَا بِي كُلَّ مِيلٍ . وَقَدْ دَهَشَ الْمَلَا حُونَ جَمِيعًا مِنْ رَوْثِي ، وَسَأَلُونِي عِدَّةَ
أَسْئَلَةٍ ؛ فَلَمْ أَقُوْ — لِحْصَتِي — عَلَى إِجَابَتِهِمْ عَنْ سَوَالٍ وَاحِدٍ .

١١ — نَوْمٌ مُضْطَرِبٌ

وَلَمَّا مَآءَ دَهْنَتِي قَصَرَ قَامَاتِهِمْ ، وَكَانَتْ عَيْنَايَ قَدْ تَمَوَّدَا رُؤْيَا الْعِمَاقَةِ ،
فَمَا يَحِيطُ بِهِمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ الضَّخْمَةِ الْعَظِيمَةِ . وَقَدْ أَدْرَكَ الرَّبَّانُ — بِذِكَاثِهِ —
مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ الضَّغْفِ ؛ فَأَذْخَلَنِي حُجْرَتَهُ ، وَحَمَلَنِي إِلَى سَرِيرِهِ لِأَسْتَرِيحَ مَا
أَنَا فِيهِ ، فَأَخْبَرْتُهُ — قَبْلَ أَنْ أَغْمِضَ عَيْنِي — أَنَّ فِي عُلْيَا أَثَاثًا ثَمِينًا وَثِيَابًا
فَافْتَرَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ وَالْقَطَنْ ، وَرَجَوْتُ مِنْهُ أَنْ يَأْمُرَ أَحَدَ رِجَالِهِ بِنَقْلِ ثَمَانِي

عَلَيَّ مِنَ الْأَثَانِ . فَجِئَ الرُّبَّانُ كَيْفَ أُسْمِيَ تِلْكَ الْحُجْرَةَ الْوَاسِعَةَ
عُلْبَةً صَغِيرَةً ، وَحَسِبَنِي أَهْذَى وَلَا أَعْنَى مَا أَقُولُ .

على أنه جاراني في الكلام ، ووعدني بتحقيق ما أردت ، لِيُطْلِمَنِي
وَيُرْضِيَنِي ، ثُمَّ أَرْسَلَ رِجَالَهُ لِإِحْضَارِ الثَّلْبَةِ .

أما أنا فاستسلمتُ لِنَوْمٍ مُضْطَرِبٍ بِضِعِّ سَاعَاتٍ ، وَظَلِمْتُ أَحْلُمُ بِلَادِ
الْعَالِقَةِ الَّتِي تَرَكْتُهَا ، وَتَمَثَّلَ لِيَ الْخَطَرُ الَّذِي كُنْتُ مُسْتَهْدِقًا لَهُ . فَلَمَّا أَفَقْتُ
مِنْ نَوْمِي وَجَدْتُني مَسْرُوحًا نَشِيطًا ، وَكَانَتِ السَّاعَةُ الثَّامِنَةُ مَسَاءً ؛ فَأَعَدَّ لِيَ
الرُّبَّانُ طَعَامَ الْعِشَاءِ بِكَرَمٍ وَسَخَاءٍ ، وَلَكِنَّهُ عَجِبَ حِينَ رَأَى عَيْنِي زَائِفَتَيْنِ !

١٢ - كَيْفَ اخْتَدَوْا إِلَى «جَلْفَر»

وَلَمَّا خَلَّاهُ الرُّبَّانُ طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَقْصَّ عَلَيْهِ قِصَّتِي ، وَكَيْفَ كُنْتُ فِي هَذَا
الْمَكَانِ ؟ وَمِنْ وَضَعِي فِي الصَّنَدُوقِ ؟ وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ رَأَاهُ مِنْ بَعِيدٍ فِي
وَقْتِ الظُّهْرِ - حِينَ كَانَ يَنْظُرُ بِمِنْظَرِهِ - فَحَسِبَهُ زَوْرَقًا صَغِيرًا ، فَحَوَّلَ
سَفِينَتَهُ إِلَيْهِ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنْهُ ، وَأَرْسَلَ زَوْرَقًا لِيَتَرَفَّ حَقِيقَتَهُ ، فَمَادَ إِلَيْهِ رِجَالَهُ
مَذْعُورِينَ ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ رَأَوْا بَيْنَنَا عَائِشًا ؛ فَضَجَّكَ مِنْ بِلَاهَتِهِمْ ، وَاشْتَغَلَ

الزَّوْرَقَ بِنَفْسِهِ ، وَدَارَ حَوْلَ الصَّنَدُوقِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، فَرَأَى نَافِذَتَهُ ، فَلَمْ يَسْمَعْ
إِلَّا أَنْ يَأْمُرَ مَلَاحِي سَفِينَتِهِ أَنْ يَجِدُّوا حَتَّى اقْتَرَبُوا مِنْهُ ، وَوَرِطَ حَبْلًا فِي
أَحَدِ أَشْيَاخِ النَّافِذَةِ ، وَلَفَّهُ حَوْلَ الثَّلْبَةِ . وَقَدْ رَأَى عَصَائِي - وَفِي طَرَفِهَا
الْمِئْدِيلُ - فَأَيَّزَ أَنْ أَحَدَ الثَّعَالِ الْمَسَاكِينِ قَدْ أُلْقِيَ فِي دَاخِلِ هَذَا
الصَّنَدُوقِ سَجِينًا .

فَسَأَلْتُهُ : هَلْ رَأَى طَائِفًا كَبِيرًا فِي الْقَضَاءِ حِينَ رَأَى ؟ فَقَالَ لِي مُتَجَبِّيًا :
« لَقَدْ كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إِلَى أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ وَأَنْتَ نَائِمٌ ؛ فَذَكَرَ لِي
أَحَدُهُمْ أَنَّهُ رَأَى ثَلَاثَةَ نُسُورٍ تَطِيرُ فِي الْقَضَاءِ - صَوْبَ الشَّمَالِ - عَلَى
ارْتِفَاعٍ عَظِيمٍ . »

وَلَمْ يَرِفِ الرُّبَّانُ مَاذَا عَنَيْتُ بِهَذَا السُّؤَالِ .

١٣ - شُكُوكُ الرُّبَّانِ

ثُمَّ سَأَلْتُ الرُّبَّانَ :

« كَمْ يَبْتَنَّا بَيْنَ الْبَاسَةِ ؟ »

فَقَالَ لِي : « إِنَّ الْأَسَافَةَ الَّتِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ تَبْلُغُ نَحْوَ مِائَةِ مِيلٍ . »
فَقُلْتُ لَهُ :

« لا أَظُنُّ إِلَّا أَنْ الْمَسَافَةَ نَصْفُ ذَلِكَ الْقَدْرِ ؛ فَقَدْ غَادَرْتُ الْبِلَادَ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا مِنْذُ سَاعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ أَهْوِيَ إِلَى الْبَحْرِ . »
فَحَسِبَ الرُّبَانُ أَنَّهُ قَدْ جَنَّتْ ، وَظَنُّوا أَنَّهُ أَهْذَى ، وَأَنَّ رَأْسِي مَضْطَرِبٌ مِمَّا لَقِيتُهُ مِنَ الْهَوْلِ ، وَأَشَارَ عَلَى أَنَّهُمْ أَنْ يَأْتُوا فِي حُجْرَتِهِ . فَأَثْبَتُّ لَهُ أَنِّي فِي غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى النَّوْمِ ، وَأَنِّي قَدْ اسْتَعَدْتُ قَوَائِي بَدَأَنْ نِيْتُ وَأَكَلْتُ ، وَأَنِّي وَاعٍ مِنْ ثَبُتِ مَا أَقُولُ .

فَنَظَرُ إِلَى مُبَيَّنًا ، وَقَالَ لِي ، فِي لَهْجَةِ الْعَازِمِ الْبَادِ فِي قَوْلِهِ : « أَرْجُو أَنْ تُكَاشِفَنِي بِحَقِيقَةِ أَمْرِكَ ، بِلَا مُوَازِفَةٍ ، مَا دُمْتُ وَاعِيًا مِنْ ثَبُتِ مَا أَقُولُ . كَمَا أَرْجُو أَنْ تُقْضِيَ إِلَيَّ بِالْجَرِيمَةِ الَّتِي ارْتَكَبْتُهَا ، فَاسْتَحَقَّ عَلَيْهَا الْعِقَابَ . »
وَلِلَّهِ ظَنٌّ أَنَّ أَحَدَ الْمُلُوكِ قَدْ أَمَرَ بَوْضْعِي فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ ، وَالِثْنَانِي فِي الْبَحْرِ عَقَابًا لِي عَلَى جُرْأَتِهِ اقْتِرَافَتِهِ ، كَمَا يُقْتَلُ بِالْمَجْرِمِينَ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ ، إِذْ يُمَرِّكُونَ تَحْتَ رَحْمَةِ الْأَمْوَاجِ الْهَائِجَةِ فِي سَفِينَةٍ مِنْ غَيْرِ شِرَاعٍ وَلَا زَاوٍ . وَأَظْهَرُ لِي أَلَمُهُ وَامْتِنَاضُهُ مِنْ أَنَّ يُؤْوِي فِي سَفِينَتِهِ أَحَدَ الْأَشْرَارِ ، وَلَكِنَّهُ أَقْسَمَ لِي إِنَّهُ لَنْ يَمْسِسَنِي بَسْوُهُ إِذَا صَدَقَتْهُ حَقِيقَةُ أَمْرِي ، وَإِنَّهُ سَيُنْزِلُنِي سَالِمًا فِي أَوَّلِ بَلَدٍ يَمُرُّ بِهِ فِي طَرِيقِهِ .

وَحَمَّ كَلَامَتَهُ بِقَوْلِهِ : « لَقَدْ حَامَتِ الشُّبُهَةُ حَوْلَكَ ، وَزَادَهَا عِنْدِي مَا سَمِعْتُهُ مِنْكَ مِنَ الْهَذْيَانِ الْجُنُونِيِّ الَّتِي كُنْتُ تَتَحَبَّطُ فِيهِ ، فَتُسَمَّى الْحُجْرَةُ الْكَبِيرَةُ عُلْبَةً صَغِيرَةً ، وَقَدْ رَأَيْتُ عَيْنَيْكَ زَانِفَتَيْنِ لَا يَكَادُ يُقَرُّ لُهُمَا قَرَارٌ ، وَرَأَيْتُكَ تَنْظُرُ فِيمَا حَوْلَكَ نَظْرَةَ الْفَلَقِ الْعَامِرِ الْمُضْطَرِبِ . »

١٤ - اقْتِنَاعُ الرُّبَانِ

فَرَجَوْتُ مِنْهُ أَنْ يَتَرَيَّثَ قَلِيلًا فِي حُكْمِهِ حَتَّى يَسْمَعَ قِصَّتِي كُلَّهَا . ثُمَّ رَوَيْتُ لَهُ - فِي أَمَانَةٍ وَدَقَّةٍ - كُلَّ مَا حَدَّثَ لِي مِنْذُ تَرَكْتُ بِلَادِي فِي رَحْلَتِي الْأُخِيرَةِ ، إِلَى أَنْ تَلَقَّيْنَا فِي تِلْكَ السَّفِينَةِ .

وَلَمَّا كَانَتِ الْحَقِيقَةُ تُشَقُّ طَرَفَهَا إِلَى الْقَوْلِ الْمُدْرِكَةِ الصَّحِيحَةِ ؛ اِزْتَوَحَ الرَّجُلُ الذَّكِيُّ الْكَبِيرُ (الذَّبِيقُ الْإِحْسَاسِ) إِلَى سَلَامَةِ سَرِيرَتِي ، وَصَفَّاهُ نَفْسِي وَإِحْلَاصِي ، وَزَادَهُ اقْتِنَاعًا - بِمَا قُلْتُ - مَا رَأَاهُ فِي صُنْدُوقِ مِنَ الطَّرَفِ وَالتَّخَفُّفِ الَّتِي أَثْبَتْتُ بِهَا مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ .

وَكَانَ بَيْنَ هَذِهِ التَّخَفُّفِ الْمُنْطَوِّ الَّذِي صَنَعْتُهُ مِنْ شَرَاتِ لِحْيَةِ الْمَلِكِ . وَقَدْ أَرَيْتُ الرُّبَانَ مُنْطَوًّا آخَرَ كُنْتُ قَدْ صَنَعْتُ مَقْبِضَهُ مِنْ ظُلْفَرِ إِبْهَامِ

الملك ، كما أَرَبْتُهُ إِضْمَامَةً مِنَ الْإِبَرِ وَالْقَبَائِسِ طُولَ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا قَمَمٌ
وَصِفْتُ قَدِيرَ ، وَنَاتَمًا مِنَ الذَّهَبِ أَهْدَيْتُهُ إِلَى الْمَلِكَةِ ذَاتَ يَوْمٍ
— بَعْدَ أَنْ نَزَعْتُهُ مِنْ بَيْتِهَا — وَوَضَعْتُهُ فِلَادَةً فِي عُنُقِي .



وَرَجَوْتُ مِنَ الرَّبَّانِ
أَنْ يَتَّضِلَ مِنِّي هَذَا الْغَنَمُ
هِدِيَّةً إِلَيْهِ — بِعَرَفَانَا
يُحَرِّمُهُ وَتَقْضِيهِ عَلَى —
فَأَبَى أَنْ يَتَّخِذَ عَلَى صَبِيحِهِ
أَجْرًا . ثُمَّ أَرَبْتُهُ السَّرْوَالَ
الَّذِي أَلْبَسُهُ — وَهُوَ
مَصْنُوعٌ مِنْ جِلْدِ فَاَرَةٍ —
فَوَسَّيْتُ الرَّبَّانُ بِمَا قُلْتُ ،

وَارْتَمَحَ لِسْمَاعِيلَ صُغْرِي ، وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيَّ شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْتُهُ لَهُ . وَقَدْ أَلَحَّ عَلَيَّ فِي
الرَّجَاءِ أَنْ أَتَيْتَ هَذِهِ الْوَقَائِعَ كُلَّهَا فِي كِتَابٍ وَأَذِيعُهُ بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ :
« إِنَّ الْخُرَافِينَ وَالْمُسْكِنَاتِ غَاصَّةٌ بِأَسْفَارِ السَّاحِلِينَ وَرِجَالِهِمْ . وَإِنِّي

أَخْشَى أَنْ يَرْتَابَ بَعْضُ النَّاسِ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَكْتُبُهُ ، أَوْ يَتَّخِذَهُ رِوَايَةً
خَيَالِيَّةً أَوْ تَقْلِيدًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ . عَلَى أَنِّي لَا أَرَى فِي هَذَا الْكِتَابِ — إِذَا
أَدْعَيْتُهُ — إِلَّا وَصْفًا صَادِقًا لِمَا رَأَيْتُهُ مِنْ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَتَهْلِيلٍ وَأَخْلَاقٍ ،
وَمَا أَحْسَبُ أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ يَسْتَحِقُّ عَنَاءَ كِتَابَتِهِ .
ثُمَّ شَكَرْتُ لِلرَّبَّانِ حُسْنَ رَأْيِهِ فِيَّ .

١٥ — ملاحظات الربان

وقد عَجِبَ الرَّبَّانُ أَشَدَّ الْعَجَبِ حِينَ رَأَى لَا أَتَكَلَّمُ مَعَهُ إِلَّا بِأَعْلَى
صَوْتِي ، وَسَأَلَنِي عَنِ السَّرِّ فِي ذَلِكَ — وَقَدْ عَلَّلَهُ بِأَنْ مَلِكَ الْمَاعِقَةِ وَمَلِكَتَهُمْ
أَسْمَانُ — فَقُلْتُ لَهُ :

« قَدْ أَلْفَيْتُ السَّكَلَامَ بِصَوْتٍ مَرْتَعٍ مِنْذُ عَامَيْنِ ، وَقَدْ أَهْدَيْتُهُ مَا سَمِعْتُهُ
مِنْ أَصْوَاتِكُمْ الْخَافَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَلْفَيْتُ أَذْنَائِي أَنْ تَسْمَعَا أَصْوَاتَنَا مَرْتَعَةً
كَالْزَعْدِ . وَكُنْتُ إِذَا تَكَلَّمْتُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ — مَعَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا —
حُجِّلُ إِلَى أَنِّي أَغَاطِبُ رِجَالًا يَطْلُونَ مِنْ فَوْقِ مِثْدَنَةٍ . وَكثيرًا مَا وَضَعُوا فَوْقَ
مَائِدَةٍ عَالِيَةٍ ، أَوْ رَفَعُوا بِأَيْدِيهِمْ ؛ حَتَّى يَسْمَعُونَا أَمْوَلُ . وَلَشَدَّ مَا عَجِبْتُ

حينَ وَهَتَ يُنْكَمُ فَرَأَيْتُ أُمَامِي عِدَّةَ رِجَالٍ غَايَةً فِي الصَّغَرِ ، بَدَأَ أَنْ تَمَوَّدَتْ عَيْنَايَ أَنْ تَرِيَا صِيْحَامَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانَتْ تُشْعِرُونِي بِحَقَارَةِ نَفْسِي دَائِمًا .

وَلَقَدْ كَاشَفَنِي الرُّبَّانُ بِأَنَّهُ قَدْ لَاحَظَ - حِينَ كُنْتُ أَتَشَوَّى عَلَى الْمَائِدَةِ - أَنَّنِي كُنْتُ زَائِعُ الْبَصَرِ ، أَنْظَرُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي دَهْشَةٍ وَخَيْرَةٍ ، وَتَلَوُّحٍ عَلَى أَسَارِيرِ وَجْهِ رَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ فِي الضَّحِكِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخْبِسُ عَوَاطِفِي حَبَسًا حَتَّى لَا أَقْهِنَةَ صَاحِبِكَا . وَقَدْ كَاشَفَنِي الرُّبَّانُ بِأَنَّهُ كَانَ يَمُرُّ ذَلِكَ إِلَى اخْتِلَالٍ فِي الْمَخِّ .

فَسَرَحْتُ لَهُ مُغْدِرِي فِي ذَلِكَ ، وَكَيْفَ أَدْهَشَنِي مَا رَأَيْتُهُ مِنْ صِغَرِ الْمَائِدَةِ ، وَضَّالَةٍ مَا عَلَيْهَا مِنَ الصَّخَافِ الَّتِي لَا يَزِيدُ حُجْمُهَا عَلَى حُجْمِ قِطْعَةٍ تَقْدِرُ ضَيْبَةً مِنَ الثُّغُورِ الَّتِي كُنْتُ أَرَاهَا فِي بِلَادِ الْمَالِقَةِ ! وَقَدْ كُنْتُ أَرَى الْغُرُوفَ كُلَّهَا لَا يَزِيدُ عَلَى لُفْتَةٍ وَاحِدَةٍ يَرْدُدُهَا وَاحِدَةً مِنْ أُولَئِكَ الْمَالِقَةِ ، وَأَرَى الْقَدَحَ لَا يَزِيدُ عَلَى فِثْرَةٍ جَوْزٍ صَغِيرَةٍ . وَظَلَلْتُ أَصِفُ لَهُ كُلَّ مَا عَلَى الْمَائِدَةِ ، وَأَقْبَبْتُ إِلَى أَمْثَالِهِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ . ثُمَّ قُلْتُ لَهُ :

« لَقَدْ كَانَتْ الْمَلِكَةُ تَأْمُرُ بِإِعْطَائِي كُلَّ مَا يَنْسَبُ صِغَرِ قَاضِي وَضَّالَةٍ جَنِيِّ ، إِلَّا أَمَّا أَفْكَارِي كَانَتْ كُلُّهَا مَخْصُورَةً فِيمَا كَانَ يَكْتَسِفُنِي مِنْ

الضَّخَامَةِ . وَكُنْتُ - وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ هَذِهِ السَّفِينَةِ - أَنْظُرُ إِلَى مَا حَوْلِي مَتَجِبًا مِنْ ضَالَّتِهِ ، غَافِلًا عَنْ أَنَّكُمْ فِي مِثْلِ حَجَبِي ! »

فَضَحِكَ الرُّبَّانُ ، وَذَكَرَنِي بِالْمَثَلِ الْقَدِيمِ الَّذِي يَقُولُ :

« إِنْ عَيُونَ بَعْضِ النَّاسِ أَوْسَعُ مِنْ بَطُونِهِمْ ! »

لَأَنَّهُ رَأَى أَنَّنِي كُنْتُ - عَلَى مَا أَرَعُمَهُ مِنْ صِغَرِ الْمَائِدَةِ ، وَعَلَى جُوعِي الشَّدِيدِ - لَا أَتَهَافُ عَلَى الطَّعَامِ ، وَلَا أَكَلُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرًا يَسِيرًا بَدَأَ أَنْ صُمْتُ يَوْمًا كَامِلًا .

ثُمَّ خَتَمَ دُعَابَهُ يَقُولُ :

« لَقَدْ كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَرَى ذَلِكَ الصُّنْدُوقَ الَّذِي كُنْتُ فِي دَاخِلِهِ وَهُوَ فِي مِيقَاتِ النَّسْرِ ، ثُمَّ أَرَاهُ وَهُوَ يَتَوَّى - بَدَأَ ذَلِكَ - مِنْ ارْتِقَاعِهِ الشَّاقِ إِلَى الْبَحْرِ . وَإِنِّي لَأَدْفَعُ مِائَةَ جَنْبِهِ مَعْدُودَةً ثَمًّا لِهَذَا التَّنَظَّرِ الرَّائِعِ الْفَدْهِشِ ، الَّذِي يَجْدُرُ بِكَ أَنْ تُسَجِّلَهُ فِي كِتَابِكَ ، لِتَقْرَأَهُ النَّاسُ فِي الصُّورِ الْقَادِمَةِ ! »

وما وَصَلْتُ إِلَى الْمَرْفَأِ ، حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَتْرُكَ مَتَاعِي عِنْدَ الرُّبَانِ
لِيَكُونَ رَهْبَةً لَدَيْهِ إِلَى أَنْ أَدْفَعُ لَهُ أَجْرَ سَفَرِي ؛ وَلَكِنَّهُ أَبَى أَنْ يَأْخُذَ
مَنَى أَى أَجْرٍ عَلَى ذَلِكَ . فَوَدَّعْتُهُ ، وَدَعَوْتُهُ مُتَرَفِّعًا أَنْ يَفْضَلَ بَرِيقَاتِي فِي
« رَدِيف » . وَاسْتَأْخَرْتُ خَوَادًا وَدَبِيلًا بَعْدَ أَنْ أَقْرَضْتُ مِنَ الرُّبَانِ قَلِيلًا
مِنَ التُّغُودِ لِأَدْفَعَهَا .



أَجْرًا لِلدَّبِيلِ .
وَكُنْتُ - فِي أَثْنَاءِ
سَفَرِي - أَدَهْتُ
لِصِغَرِ الْمَسَازِلِ ،
وَمَنَاقِلِ الْأَشْجَارِ ،

وَحَقَافَةِ الدَّوَابِّ ، وَقَمَافَةِ الرُّجَالِ ؛ فَأَخَانَنِي سَائِرًا فِي « لِيلِيُوت » - بِلَادِ
الْأَقْوَامِ - وَأَتَخَرَّجُ مِنْ أَنْ أَطْلُبَ بَقْدَمِي أَحَدًا مِنْهُمْ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ . وَكُنْتُ
أَمْسِيحُ بِهِمْ أَنْ يَنْقُصُوا ، وَكَدْتُ أَشْفِيكَ فِي مَتَرَكَيْنِ - بِسَبَبِ حِمَايَ -
وَقَدْ عَرَّضْتُ نَفْسِي لِلْهَلَاكِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا .

خاتمة الرحلة

١ - التَّوَدُّعُ إِلَى الْوُطَنِ

وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَقِّي أَنْ ذَلِكَ الرُّبَانُ عَائِدًا إِلَى « إِنْجِلِيرَا » وَهُوَ قَادِمٌ
مِنْ « تُشْكِين » ..

وَمَا وَصَلْنَا إِلَى الدَّرَجَةِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ خُطُوطِ الطُّولِ ، حَتَّى هَبَّتْ
عَلَيْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ - وَلَمْ يَكُنْ قَدْ مَرَّ عَلَى وُجُودِي فِي السَّفِينَةِ - إِلَّا يَوْمَانِ ،
فَأَنْدَقَعْنَا إِلَى الشَّمَالِ زَمَنًا طَوِيلًا ، ثُمَّ حَاضَرْنَا الشَّاطِئَ ، حَتَّى بَلَّغْنَا رَأْسَ
الرَّجَاءِ الصَّالِحِ .

وَكَانَتْ الرِّحْلَةُ سَعِيدَةً مُؤَقَّتَةً ، رَغْمَ مَا كَابَدْنَاهُ فِيهَا مِنْ جَهْدٍ وَعَنَاءٍ فِي
التَّنَلُّبِ عَلَى الْمَوَاصِفِ الْهَوُجِ . وَقَدْ مَرَّ الرُّبَانُ بِبَلَدَيْنِ - فِي أَثْنَاءِ سَفَرِهِ -
فَتَزَوَّدَ مِنْهُمَا بِمَا شَاءَ مِنَ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ . أَمَا أَنَا فَلَمْ أَتَرَجَّ السَّفِينَةَ حَتَّى وَصَلْتُ
إِلَى وَطَنِي فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ شَهْرِ يُنْيَسَ عَامِ ١٧٠٦ م ، أَى بَعْدَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ
تَقْرِبًا مِنْ خَلَاصِي .

لِيَحْيِيَنِي : فرأيتهم جميعاً أفراماً ضيالاً ، وحُيِّلَ إلى أنى بينهم عِلاقٌ عظيمٌ
بائِنُ الطول . ولقد طالما قلتُ لزوجتي : « إِنَّكَ غَايَةٌ فِي الضَّالِّ وَالنَّحَافَةِ » .
لأننى رأيتها وابْتَنَيْتُهَا أُمَامِي كَأَنَّهُمْ حَشَرَاتٌ صَغِيرَةٌ ... !

وهكذا أصبحتُ غريبةَ الأطوارِ ؛ فَازْتَابُوا فِي صِحَّةِ عَقْلِي ، وسلامةِ
أَعْصَابِي ، وحيويي - كما حَسِنِي الرُّبَانُ مِنْ قَبْلُ حِينَ رَأَى أَوَّلَ وَهْلَةٍ -
قَدْ جُنْتُ بَدَمًا كَفَيْتُهُ مِنَ الْأَهْوَالِ ! ولم يكنْ لذلكُ كُلُّهُ مِنْ سَبَبٍ إِلَّا
أَنِّي قَدْ تَوَدَّدْتُ رُؤْيَا الْعَمَلَقَةِ وَمَا يَكْتَنِفُهُمْ مِنْ ضِيخَامِ الْأَشْيَاءِ ؛ فَصَغُرُ
فِي عَيْنِي كُلُّ مَا رَأَيْتُهُ فِي بِلَادِي ، مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ . وفي هَذَا
دَلِيلٌ عَلَى مَا تُعَدِّدُهُ الْمَادَّةُ مِنْ أَثَرٍ فِي قَسِيٍّ صَاحِبِهَا .

ولم يَمُضْ عَلَى زَمَنٍ قَلِيلٌ ، حَتَّى اسْتَقَرَّتِ الْأُمُورُ فِي صَاحِبِهَا ؛ فَالْقُلْتُ
أَنْ أَرَى الْأَشْيَاءَ عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَأَبْلِغْتُ عَلَى أَهْلِي وَأَصْدِقَائِي ؛ فَفَرَحُوا بِذَلِكَ
أَشَدَّ الْفَرَحِ . وَرَأَتْ زَوْجِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ خَاتَمَةُ الرَّحَلَاتِ ؛ فَامْتَرَسَتْ
أَمْرَهَا إِلَّا تَدْعَى أَعْرَضِي قَسِيٍّ - بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ - لِأَخْطَارِ الْأَسْفَارِ ،
وَرُكُوبِ الْبَحَارِ ،

الرحلة الثالثة : جلفر في الجزيرة الطيارة

٢ - فِي يَمِينِ « جِلْفَر »

وَمَا وَصَلْتُ إِلَى مَنْزِلِي ، وَقَرَعْتُ بَابَهُ ، حَتَّى فَتَحَ لِي أَحَدُ الْخُدَمِ ،
فَانْحَنَيْتُ لِأَدْخُلَ - حَذَرًا مِنْ أَنْ يُصَدِّمَ رَأْسِي بِأَعْلَى الْبَابِ - وَقَدْ بَدَأَ لِي
الْبَابُ صَغِيرًا كَأَنَّهُ نَافِذَةٌ صَغِيرَةٌ ... !

وَمَا رَأَيْتُ زَوْجَتِي ، حَتَّى أَسْرَعْتُ إِلَى لِمَاعَتِي وَقَلْبَتِي - وَهِيَ فِرْعَانَةٌ
بَعُودِي سَالِمًا - فَانْحَنَيْتُ انْحِنَاءَةً طَوِيلَةً أُمَامَهَا ، حَتَّى أَصْبَحْتُ دُونَ



رُكْبَتَيْهَا ، وَقَدْ حُيِّلَ إِلَى أَنَّهَا
- لِقِصْرِهَا - لَنْ تَصِلَ إِلَى إِلَّا إِذَا
انْحَنَيْتُ أُمَامَهَا إِلَى هَذَا الْحَدِّ . ثُمَّ
أَسْرَعْتُ إِلَى وَلَدَايَ ، وَرَكَمًا عَلَى
رُكْبَتَيْهَا حَمْدًا لِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِي ، فَلَمْ
أَسْتَطِعْ أَنْ أَتْبِيَهُمَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَقَا
أُمَامِي ، لِأَنِّي كُنْتُ قَدْ اغْتَدْتُ - مِنْذُ
زَمَنٍ طَوِيلٍ - أَنْ أَقِفَ مَرْفُوعَ

الرُّءُوسِ مَصُوبًا عَيْنِي إِلَى أَعْلَى . ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى مَنْ وَقَفَ عَلَى مِنَ الْأَصْدِقَاءِ